١- **القهوة .. رؤية تشريحية : (الشكل والمكان والمعمار)**

تحمل مفردات المكان دلالاتها الخاصة ، وتبدو وكأنها صور بصرية للوحات تشكيلية مرسومة بالألوان ، وهذه المقاهى تقدم فهماً خاصاً لجماليات القصة التى يعتمد وجودها على المكان ، بحيث أنه يقدم من خلال هذا الفهم تعريفاً للقص يقوم على تقديم علاقات المكان وانعكاس ملامحه على البشر الذين يقطنون فيه ، أو الذين يترددون عليه. فلا يبدو المكان مستقلاً عن البشر، وإنما منغمساً فى ملامحهم الداخلية ومشاعرهم العميقة ويرتبط بذكريات الطفولة والتكوين والنضج أيضاً .. وقد تحقق هذا المعنى بدقة فى قهوة قشتمر.. ويلاحظ أن لكل مقهى جو خاص به. فمثلاً ..الجو العام فى قهوة المعلم طرزان فى اللص والكلاب يختلف عن الجو العام لقهوة قشتمر وهذا يختلف عن قهوة ريش أو الفيشاوى أو الكرنك ، فكل مقهى له جوه الخاص ، حسب النوعية المرتادة عليه وحسب الأحداث وحسب مكان القهوة . فالقهوة فى اللص والكلاب لها مكان خاص يختلف عن القهوة الداخلة فى الزقاق ويختلف عن القهوة فى الحسين أو سليمان باشا .

ولكل قهوة معالم خاصة بها وربما تنفرد بها عن سائر المقاهى الأخرى (قهوة النوبيين أو قهوة النشالين) فى السراب وأهل القمة .. أيضاً معلم القهوة أو صاحب القهوة يختلف من مقهى لآخر . سواء فى المظهر أو التعامل أو فى ألفاظه ولغته سواء مع الزبائن أو مع العاملين معه . أيضاً القهوجى (أى الصبى) يختلف من قهوة لأخرى إلى جانب أدوات القهوة والزبائن .....الخ .

للموقع دوراً حيوياً فى العمل السردى .. وهنا نقول أن موقع القهوة له دور أساسى فى أحداث العمل الروائى، والموقع مرتبط بالعديد من العناصر، فمن خلاله يتحدد كل من الرواد الذين يأتون إلى تلك القهوة وأيضاً تتحد طبيعة وخصائص صاحب القهوة (المعلم) ويتحدد أيضاً الشكل العام للقهوة ونوعية المشروبات وأنواع التسلية ، بل أن درجة الضوضاء والأضواء تتوقف على ذلك الموقع .. فمثلاً إذا كانت القهوة تشارف الصحراء أو الخلاء فيندر أن تجد مثلاً بياع ورق اليانصيب ، ويندر أن تجد ماسح الأحذية ... ومن ثم فأنت تلاحظ أنه لا اهتمام بشكل المكان أو الأضواء .. ومن ثم تجد الأصوات فيه قليلة ، سنلاحظ ذلك مثلاً فى قهوة المعلم طرزان فى (اللص والكلاب) وكذلك قهوة المعلم حنش فى (الحب فوق هضبة الهرم) .. ثمة ملاحظة هامة أيضاً .. إذا كانت القهوة تقع فى درب أو حارة أو أحد الأزقة فإنك تجد كل ما هو خارج القانون فى تلك القهوة بخلاف مقاهى وسط البلد فإنها دائماً تقع تحت الرقابة وتحت عيون البوليس ..

- **أهم سمات المقهى كمكان:**

١- انه مكان التقاء وليس افتراق..

٢- انه مكان مضيئ وليس مظلم ..

٣- انه مكان اختيارى للقاء وليس اجبارى ..

٤- انه مكان حركة وليس سكون ..

٥- انه مكان مفرح وليس مقبض ..

٦- انه مكان يتسم بالزحام وليس بالندرة ..

٧- انه مكان يتسم بالصخب وليس مكان هادئ ..

obeikandl.com

٨- انه مكان شعبى ..

٩- انه مكان الأصوات فيه متميزة ..

١٠-انه مكان غالبا قديم عند نجيب محفوظ الا فيما ندر ..

١١- المقهى عند نجيب محفوظ واقعى لكنه كثيرا ينتقل به الى الرمزية ..فيتحول المكان الواقعى الى مكان رمزى ..

بعض النماذج للمقاهى :

قهوة الزهرة (خان الخليلى ١٩٤٦)

عند مساء اليوم الثانى غادر العمارة ووجهته قهوة الزهرة ، فوجدها عند مدخل شارع محمد على الكبير ، وهوالسابق لشارع إبراهيم باشا . وكانت فى حجم الدكان ذات مدخلين أحدهما على شارع محمد على والثانى على الممر الطويل الذى يؤدى إلى السكة الجديدة . وقد وجد فى الحى من أمثال هذه القهوة عشرات حتى قدّر قهوات الحى بمعدل قهوة لكل عشرة من السكان ...[٤٧]

قهوة كرشة (زقاق المدق ١٩٤٧)

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة ، وأنه تألق يوماً فى تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدرى . أى قاهرة أعنى ؟ .. الفاطمية .. المماليك ؟ السلاطين ؟ علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار ولكنه على أية حال أثر ، وأثر نفيس . كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصناديقية ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك ، هذا إلى قدم باد ، وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذى صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد. !

وكان المدق يغرق فى الصمت ، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية عشش الذباب بأسلاكها ، وراح يؤمها السمار . هى حجرة مربعة الشكل ، فى حكم البالية ، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك ، فليس لها من مطارح المجد إلا تاريخها ، وعدة آرائك تحيط بها . (٥ : ٧)

قهوة النوبيين (السراب ١٩٤٨)

فى العباسية .. وفى شارع كمال المتفرع من الطريق العام إلى اليسار ، وقفت فى المحطة أتفحص ما حولى فرأيت شارعاً فرعياً يقابل شارع كمال على الناصية اليمنى من الطريق تقوم على ناصيته قهوة صغيرة ، بدا لى أن أجلس فى هذه القهوة حيث يسهل رؤية المدرسة من بعيد ... واتجهت إليها – وكان بابها يفتح على الشارع الجانبى – واخترت مجلساً على عتبة المدخل يمكننى أن أرى منه ما أريد رؤيته ، وأن أتوارى إذا دعا الحال بزحزحة الكرسى قليلاً إلى الوراء . وأدركت من نظرة واحدة مقدار حقارة القهوة ، فكانت موائدها قديمة وكراسيها باهتة وروادها من النوبيين ، ولكن لم أبال هذا ، بل وجدت به مدعاة للطمأنينة . (٢٥٧)

واتخذت مجلسى من القهوة فجاءنى النادل ذو الجلباب الباهت ، والطاقية المائلة إلى قذاله كاشفة عن ذؤابة متصلبة ، والنعل المنجرد ، وحيانى تحية لعله لا يلقيها إلا للزبائن القدماء ، فطلبت القهوة التى أحسوها بتقزز واستكراه .. (٢٦٨)

قهوة أحمد عبده (بين القصرين ١٩٥٦)

كان كثرة تلاقيهما فى قهوة أحمد عبده بخان الخليلى ، تلك القهوة التى تقع تحت سطح الأرض كأنها كهف منحوت فى جوف جبل ، مسقوفة بربوع

الحـى العتيـق ، منعزلـة عـن العـالم بحجراتهـا الضـيقة المتقابلـة وباحتهـا التـى تتوسـطها نـافورة صـامتة ، ومصـابيحها التـى تقـاد ليـل نهـار ، وجوهـا الهـادئ الحالم الرطيب ، كان ياسين قد مـال إلـى هذه القهوة لدنوها من حانـة كوستاكى من ناحية ولاضطراره إلى هجره قهوة سى علـى بالغوريـة بعد قطـع زنوبـة من ناحية أخرى ، ثم لما خصت به القهوة الجديدة من طابع أثرى صادف هوى من نفسه الميالـه للشعر . (٣١٨)

وقد أتت المعاول علـى قهوة أحمد عبده التاريخيـة فمحتهـا من الوجود إلى الأبد (١٧٤) (السكرية)

قهوة طرزان (اللص والكلاب ١٩٦١)

حملـق الرجـال القليلـون بـأعين لا تصـدق .. وأحـدقوا بـه وعلـى رأسـهم معلم القهوة وصبيه وعانقوه وقبلوا وجنتيه .. ولبثوا يتبادلون الأخبار حتـى أخذه المعلم إلى أريكته ورجاهم أن يعودوا إلى مجالسـهم فعـادت القهوة إلـى هدوئها . لـم يتغيـر شـىء كأنـه تركهـا بـالأمس . الحجـرة المسـتديرة ، النصـبة النحاسـية ، الكراسى الخشبية ذات المقاعد من القش المفتـول ، الزبـائن القلائـل المعروفـون الموزعون فى الأركان ، يحتسون الشاى ويعقدون الصفقات .. ومـد البصـر إلـى الخلاء المنتشر على الأرض المفعم بـالظلام فتبـدت النجـوم فـى السـماء الصـافية كالرمال وكأن القهوة جزيرة فى محيط أو طيارة فى سماء . وفـى أسفل الهضـبة التـى تقـوم عليهـا القهـوة تحركـت السـجائر– كـالنجوم– فـى أيـدى الجالسـين فـى الظلمة من رواد الهواء الطلق ، وعند الأفق الغربى لاحت أنـوار العباسية بعيدة جداً يشعر بعدها بمدى توغل القهوة فى الصحراء .. (٤٧)

قهوة الكرنك (الكرنك ١٩٧٤)

اهتديت إلى مقهى الكرنك مصادفة . ذهبت إلى شارع المهدى لإصـلاح سـاعتى .. عثـرت علـى المقهـى فـى تنقلـى فقصـدته . ومنـذ تلـك السـاعة صـار مجلسـى المفضـل . رغـم صـغره وانزوائـه فـى شـارع جـانبى صـار مجلسـى

المفضل .. من مجلسى أجلت البصر فأحاط بالمكان. كأنه حجرة كبيرة ليس إلا ولكنه أنيق رشيق ، مورق الجدران، جديد الكراسى والموائد، متعدد المرايا ، ملون المصابيح ، نظيف الأوانى ، يالـه من مجلس ذى جاذبية لا تقاوم .... القهوة فاخرة والماء نقى عذب والفنجان والكوب آيتان فى النظافة ... (٣ : ٤)

قهوة ودود (قلب الليل ١٩٧٥)

هجعت عطفة الباب الأخضر تحت ستار الليل . تعود فى تلك الساعة أفواج من الشحاذين إلى أركانهم ، ينطلق المجاذيب فى جنباتها ، يفوح البخور من زواياها . لا غريب يطرقها ليلاً إلا رواد مقهى ودود القلائل ، وجميعهم من مدخنى البورى . (١٣)

قهوة النشالين (الحب فوق هضبة الهرم ١٩٧٩)

فى قصة (أهل القمة) ... أمر الضابط باستدعاء زعتر النورى .. جميع المخبرين يعرفون مقهى النشالين المعروف بمقهى حنش فى خلاء الحدائق فيما يتصل بالحقول ، وهو الذى أطلق عليه المعلم حنش اسم (مقهى الأمراء) بعد الثورة (٦٥) ... اقترب من الخلاء المشارف للحقول فتبدى له مقهى (الأمراء) فى عزلته ورثاثته . حجرة حجرية يتقدمها فناء ترابى مسور بالصبار . بدا كالخالى بعد تخلى زبائنه الأصليين عنه . وقف فى الفناء المهجور فلمحه الحنش – العجوز الأحدب – وسرعان ما هرع إليه مرحباً وقلقاً فى أن . (٧٥)

قهوة النجاح (صباح الورد ١٩٨٧)

أما الطريق بين أبو فودة ومقهى النجاح فى ميدان الجيش فقد رسخت هيئته الحديثة بطواره المحطم وتياره البشرى المصطخب وأصواته المرعدة المزمجرة ومركباته المتنوعة المتلاحقة المتدفقة وغباره المنتشر ، رسخت هذه

الهيئة فجعلت من أناقته القديمة ، وسماحته الزائلة وهدوئه الشامل حلماً من أحلام اليقظة (١٠١) .

قهوة قشتمر (قشتمر ١٩٨٨)

يقع عند التقاء الظاهر بشارع فاروق بالعباسية .. صغير وجديد وجميل وذو حديقة صيفية صغيرة وطالعنا قشتمر بلونه الأخضر الزاهى ، وحجمه المحدود الذى لا يزيد عن حجم بهو بسراى الزين باشا – كما قال صادق – ومراياه المثبتة فى الجدران ، وحديقته الصغيرة الموصولة به بباب صغير مفتوح ، تنطلق بأركانها نخلات أربع ، ويقوم فى الوسط عدد من الموائد فى صورة مربع متساوى الأضلاع . (٢٨)

قيادة القهوة (المعلم .. المعلمة .. القهوجى) :

أحد المعالم البارزة فى أى قهوة (معلمها) أو صاحبها إلى جانب التابع أو القهوجى .. هذه معالم أساسية لابد أن تلفت نظر أى شخص يرتاد المقهى بالمعنى المألوف والراسخ والذى تعودنا عليه والذى رصده نجيب محفوظ فى رواياته ..

وينبغى أن نلتفت إلى نقطة هامة وهى أن نجيب محفوظ يمكن أن يذكر المقهى ولكنه لا يلقى بالاً إلى صاحبها أو تابعه (القهوجى) .. ومن ثم يصبح السرد منصباً على فئة من الرفاق أو ركن معين تحدث فيه الأحداث ... وجدنا هذا واضحاً فى (قشتمر) و(خان الخليلى) و(شهر العسل) بينما هناك أعمال تجد فيها معلم القهوة وتابعه من أبرز الشخصيات فى العمل .. وجدنا ذلك واضحاً فى (اللص والكلاب) ، (الكرنك) ، (زقاق المدق) .

وعندما يقدم نجيب محفوظ شخصية المعلم فإنه يقترب منه ، وصفاً ودراسة ومعايشة ، بحيث تشعر أن المعلم يمشى ويتحرك بل إنك تعيش فى حالة أنك واجده فى أحد المقاهى بالفعل !!

ظاهرة تحتاج للدراسة والتحليل ونحن هنا نركز عليها فى مجال معلم القهوة ..وعلينا ملاحظة أن هناك أعراض واضحة للعيان لكل مدمنى المخدرات منها على سبيل المثال ..ضعف القدرة على التركيز ، القلق والحيرة والارتباك ،

الكآبة والغم ،الميول العدوانية وسعة الاستثارة ، الخمول والنعاس والكسل والتراخى والبلادة ....وهذا ما سنجده مثلا عند المعلم كرشة ...

المعلم كرشة فى (زقاق المدق)

وبدأ شاعر الربابة فى الإنشاد : وقاطعه صوت أجش دخل القهوة عند ذاك يقول : هس ! ولا كلمة أخرى . فرفع بصره الذليل عن الربابة فرأى المعلم كرشة، بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينيه المظلمتين النائمتين، فنظر إليه واجماً . وتردد قليلاً كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه . وأراد أن يتجاهل شره، فاستدرك منشداً : يقول أبو سعدة الزناتى ولكن المعلم صاح به مغيظاً محنقاً: بالقوة تنشد ؟ ! انتهى .. انتهى ! ألم تدرك من أسبوع مضى ؟ فلاح الاستياء فى وجه الشاعر ، وقال بلهجة ملؤها العتاب : أراك تكثر من (الكيف) ثم لا تجد من ضحية سواى !

فصاح المعلم فى غضب وحنق : رأسى صاح يا مخرف ، وأنا أعلم ما أريد أتحسب أنى آذن لك بالإنشاد فى قهوتى إذا ما سلقتنى بلسانك القذر ؟!

فخفف الشاعر لهجته مستوهباً عطف الرجل الغاضب ، وراح يقول : هذه قهوتى أيضاً ، ألست شاعرها لعشرين عاماً خلون ؟!

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق الماركات : عرفنا القصص جميعاً وحفظناها ، ولا حاجة بنا إلى سردها من جديد والناس فى أيامنا هذه لا يريدون الشاعر، وطالما طالبونى بالراديو، وها هو ذا الراديو يركب ، فدعنا ورزقك على الله (٩)

المعلم كرشة هو صاحب الإدارة المطلقة للقهوة .. هو الآمر والناهى فيها .. وشاعر الربابة هو منشدها فى الزمن الماضى بينما الحاضر تغير وتغيرت وسائل الترفيه والتسلية وهو يتواكب مع الحال السائدة ، المعلم كرشة يتواكب مع العصر ويعمل لمصلحته ومصلحة رواده وتلك طبيعة أى صاحب عمل .. يريد المكسب وكل ما يفيده ويروج سلعته أو مكانه .. وما فعله المعلم كرشة فى قهوته سنجده يحدث فى قهوة قشتمر ..

المعلم كرشة والكيف :

غالباً ما نجد صاحب القهوة أو معلم القهوة يدخل إلى دائرة الكيف ، ويتمثل هذا الكيف فى تدخين الحشيش وتعاطى الأفيون ، وقد يكون شرب الكحوليات على اختلافها ..(على أن تلك الظاهرة ليست قاصرة على معلمى المقاهى فقط وإنما تنسحب تلك الظاهرة على معلمى الكثير من المهن الأخرى الجزارة والفاكهة والخضار والسمك ... الخ) .. ظاهرة تحتاج للدراسة والتحليل ونحن هنا نركز عليها فى مجال معلم القهوة ..

وعلينا ملاحظة أن هناك أعراض واضحة للعيان لكل مدمنى المخدرات منها على سبيل المثال ..ضعف القدرة على التركيز ، القلق والحيرة والارتباك ، الكآبة والغم ، الميول العدوانية وسرعة الإثارة ، الخمول والنعاس والكسل والتراخى والبلادة ... وهذا ما سنجده واضحاً مثلاً عند المعلم كرشة ..

وظل سنقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات فى الصندوق ، والمعلم (كرشة) يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر فى خمول ذوبان الفص فى جوفه ويستنيم إلى سلطنة لذيذة . وتقدمت جحافل الليل ، فغادر السيد رضوان الحسينى القهوة إلى بيته . ويتبعه الدكتور بوشى ... وأخذت المقاعد تخلو تباعاً ، حتى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلا ثلاثة : المعلم والصبى والشيخ درويش . وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم (كرشة) . وصعدوا جميعاً إلى حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان ، وتحلقوا المجمرة ، وبدءوا سهرة جديدة لا تنتهى حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .. (١٥)

صبى القهوة (القهوجى) : (سنقر) فى زقاق المدق : .. إننا نلاحظ حركة (سنقر) لكننا لا نعرف عن أوصافه أى شىء ، فلم يقترب نجيب من شخصيته التكوينية ولكنه يقدمه لنا بصورة حركية نشطة ، كل شىء فى المقهى يقع على عاتقه .

انكب سمار القهوة على الدومينو والكومى .. وظل سنقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات فى الصندوق (١٤)

بيد أن النشاط يدب فى الأركان منذ الصباح الباكر ، يفتتحه سنقر صبى القهوة فيهيئ المقاعد ويشعل الوابور، ثم يتوافد عمال الوكالة أزواجاً وأفراداً(٣٠).

وعندما آذنت الشمس للمغيب غادر – المعلم كرشة – القهوة دون أن ينبئ سنقر عن طيته (٤٦) صبى القهوة هنا موجود بحركته ونشاطه فهو الأساس وهو دينامو الحركة فى القهوة ولكننا لا نسمع صوته ولا نعلم عن شكله أى شىء ولا يدخل فى الأحداث ، هو عنصر هام فى الحركة لكن الكاميرا عند نجيب محفوظ آثرت أن تتجاهل ملامحه .. وعندما يغادر المعلم القهوة فهو يعتمد على سنقر ... هو الذى يفتح القهوة وهو الذى يغلقها وهو سبب كل نشاط فى الدرب رغم مجهولية معالمه ..

المعلم زفته فى (خان الخليلى) :

فى خان الخليلى نلتقى بمعلم القهوة (زفته) وهنا أيضاً نجد أن عدسة نجيب تتعمد عدم الاقتراب من ملامحه ، فلا نلحظ منه إلا وجوده ومزاجه الخاص للمخدرات .

واحتلت الجماعة على صغرها أكثر من ثلث القهوة ، وجلس القهوجى إلى صندوق الماركات على كثب منها وكأنه – لاشتراكه فى أحاديثها – واحد منها ! (٤٩)

يقول أحمد راشد لأحمد عاكف .. أنظر إلى القهوجى الذى يحدثه عباس شفه ، أنظر إلى عينيه الذاهلتين ! إنه يزدرد نصف درهم من الأفيون كل أربع ساعات ، ويمضى فى عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب أن يفيق (٥)

المعلم طرزان فى (اللص والكلاب) :

المعلم طرزان فى اللص والكلاب يمثل أحد الركائز الأساسية والصلبة التى يقام عليها العمل الروائى ، هو بمثابة أحد أعمدة المسلح القوية التى يرتكز عليها العمل ولذا نجد أن بطل الرواية والأحداث يرتكز ويرتكن عليه ، وأنا أزعم أن سقوط معلم القهوة طرزان معناه سقوط العمل الروائى كاملة ، إذن نحن أمام نمط معين وخاص يعرضه نجيب محفوظ ليجعله أحد الكشافات القوية المسيرة للعمل الروائى .. ورغم ذلك فإن عدسة نجيب محفوظ لا تود أن تقترب

من ملامح المعلم طرزان تاركاً ذلك للقارئ أن يستشفه من خلال الحوار والمواقف عبر الأحداث .

حملق الرجال القليلون بأعين لا تصدق ، وقاموا قومة رجل واحد : يا أرض احفظى ما عليك ! وأحدقوا به وعلى رأسهم معلم القهوة وصبيه وعانقوه وقبلوا وجنتيه . وشد سعيد مهران على أيديهم واحداً فواحداً وهو يقول بامتنان : أشكرك يا معلم طرزان، أشكركم يا أخوان. (٤٥) ولبثوا يتبادلون الأخبار حتى أخذه المعلم إلى أريكته ورجاهم أن يعودوا إلى مجالسهم فعادت القهوة إلى هدوئها ... ومال نحو المعلم متسائلاً : كيف حال الشغل ؟

فلوى طرزان شفته السفلى فى امتعاض وقال : ندر من يعتمد عليه من الرجال !

فهمس سعيد فى أذنه : يلزمنى مسدس جيد !

فقال المعلم طرزان بلا تردد : تحت أمرك (٤٦)

فربت على منكبه شاكراً ثم قال بشىء من الارتباك .. لكن .. فوضع اصبعه الغليظ على شفتيه قاطعاً كلامه فى عتاب وهو يقول : لا عاش من أحوجك إلى اعتذار .. (٤٧)

وأغمض عينيه مستسلماً للهواء النقى وإذا بيد توضع على كتفه فالتفت وراءه فرأى المعلم طرزان مادا يده الأخرى بالمسدس وهو يقول : نار على عدوك بإذن الله (٤٨)

وعادوا معاً متجهين نحو أريكة المعلم . وعندما مرا بباب القهوة لعلعت فى الخارج ضحكة أنثوية فضحك المعلم طرزان وقال : نور ، ألا تذكرها ؟

ولما جلس على الأريكة نادى المعلم صبيه وقال له : بصنعة لطافة قل لنور أن تأتى ....

- كيف حالك يا نور ؟

فأجاب طرزان باسماً : هى كما ترى نور ونور ! (٥٠)

وجلس إلى جانب طرزان على أريكته ولم يكن بداخل القهوة إلا رجل واحد من مهربى السلاح وصبى القهوة على حين ضج سفح الهضبة بالسمر .

وسرعان ما جاءه صبى القهوة بالشاى . ثم مال طرزان نحوه هامساً : لا تقم فى مكان واحد أكثر من ليلة ..

وقال المهرب : اهرب إلى الصعيد

فتساءل سعيد : لا أحد لى فى الصعيد

فعاد المهرب يقول : كثيرون تحدثوا عنك أمامى بإعجاب ..

فتساءل طرزان بحنق : والبوليس هل يعجب به أيضاً ؟

.....

فقال صبى القهوة بحماس : أى ضرر فى سرقة الأغنياء !

ونهض طرزان فجأة فاندفع نحو النافذة وأطل منها متلفتاً يمنة ويسرة ، ثم عاد يقول باهتمام : خيل إلىّ أنى رأيت وجهاً ينظر إلينا !

فالتمعت عينا سعيد ، وردد ناظريه بين النافذة والباب ، وخرج الصبى مستطلعاً ، على حين قال المهرب : أنت ترى دائماً أشياء لا وجود لها .

فهتف به طرزان : اسكت ، أنت تظن أن حبل المشنقة لهو ولعب!(٩٣)

يلاحظ من خلال الحوار السابق الدور الحيوى والفاعل للمعلم والصبى .. وهنا نجد حيوية المكان وأهميته سواء المكان كوجود أو أصحاب المكان .. ودراسة اللص والكلاب تجعلنا نقف أمام المكان بعين أكثر إدراكاً وروية ... فمع المكان أو جغرافية المكان لها دور وأصحاب المكان الأصليين لهم دور أيضاً ثم المترددين على المكان سواء بشكل دائم أو غير دائم لهم دور أيضاً .. وإذا سألنا أنفسنا هل كان من الممكن أن تقع تلك الأحداث بنفس الترتيب والحيوية والنتائج لو أن قهوة طرزان مكان قهوة الانشراح أو الزهرة أو الفيشاوى ؟؟ لا شك أن الموقع له دلالة هامة فى سير الأحداث وهل كان المعلم طرزان ستكون له هذه السطوة وهذا التواجد فى السرد لو أنه يملك قهوة الفيشاوى مثلاً !

نقول أن وقوع قهوة طرزان على مشارف الصحراء والمعلم طرزان يعد من مهربى السلاح والمترددين عليه أيضاً من مهربى السلاح وتجار المخدرات كل ذلك ساهم فى إبراز مكانة قهوة طرزان ..

ومضى فى الليلة التالية إلى قهوة طرزان ، هرباً من الوحدة وطلباً للجديد من الأنباء . وما كاد يظهر عند مدخل القهوة حتى بادره طرزان فذهب به إلى الخلاء بعيداً ثم قال معتذراً: لا تؤاخذنى ، حتى قهوتى لم تعد بالمكان المأمون لك .

فقال سعيد واجماً وإن أخفى الظلام وجومه : ظننت الزوبعة قد هدأت .

- إنها تزداد كل يوم اشتعالاً بسبب الجرائد ، اختف لا تحاول الخروج من القاهرة الآن .. وهم بالذهاب فقال له طرزان وهو يودعه : فلنتقابل بعيداً عن القهوة إذا شئت . (٩٨)

.....

وغادر البيت عقب منتصف الليل دون أن يسمع همس حذائه أحد . وقطع الخلاء نحو قهوة طرزان . وعند موقفه المعتاد صفر ثلاثاً وانتظر حتى جاءه المعلم طرزان . وصافحه الرجل وهو يقول له :

-كن شديد الحذر ، لا يخلو شبر من مخبر .

-أريد طعاماً !

-يا خبر أبيض ! جوعان !

-نعم ، لا تتعجب لشىء يا معلم !

-سأرسل الولد ليحضر لك الكباب ، ولكن من الخطر حقاً أن تخرج .

-تعرضنا فيما مضى لأخطار أشد ، أنا وأنت ..

-كلا ، الهجمة الأخيرة قلبت عليك الدنيا ..

-طول عمرها وهى مقلوبة .

-ولكن من النحس أن تهاجم رجلاً خطير الشأن ..

وودعه وانصرف . وبعد ساعة جاءه الطعام فالتهمه بعنف . وجلس فوق الرمال تحت قمر أوشك أن يكتمل . (١٢٥)

المعلم عبده بدران فى (مقهى الانشراح – الحب تحت المطر) :

بعد منتصف الليل تخلو المقاهى من الرواد وقد يبقى صاحب القهوة فترة ربما يأتى إليه أحد ، كان هذا فى الزمن الماضى عكس الزمن الحاضر والذى نرى فيه المقاهى تعمل وتعج بالرواد حتى الصباح ..

انتصف الليل فخلت مقهى الانشراح بشارع الشيخ قمر من زبائنها . لم يبق من عمالها إلا عم بدران النادل وعشماوى ماسح الأحذية . ومضى عشماوى بهيكله الضخم الخاوى إلى الخارج فجلس القرفصاء جنب مدخل المقهى ينظر إلى لا شيء بعينيه العمشاوين . أما عم عبده فاقتعد كرسياً وسط المدخل وأشعل سيجارة . بعد ربع ساعة مرقت سيارة مارسيدس بيضاء أمام المقهى ثم وقفت على مبعدة يسيرة لصق الصوار فرفع عشماوى رأسه نحوها وهو يقول : الأستاذ حسنى حجازى . وقام عم عبده بدران ليستقبل القادم الذى أقبل بجسمه الطويل النحيل ورأسه الضخم رافلاً فى بدلة بيضاء وآية فى الأناقة. (١٠)

.....

وخيم الهدوء الشامل على مقهى الانشراح فلم يند عنه إلا قرقرة النارجيله المتقطعة . وكان عشماوى يتناول عشاءه – رغيفاً وطعمية – عند الباب ، أما عبده بدران فجلس على مبعدة يسيرة من حسنى حجازى متحفزاً للحديث أو لتقديم أى خدمة . (٣٢)

المعلم حنش فى (مقهى الأمراء – أهل القمة فى الحب فوق هضبة الهرم) :

سبق وأن وجدنا المعلم طرزان فى اللص والكلاب ينحصر رواد مقهاه على فئة خاصة فهم من مهربى السلاح وتجار المخدرات والخارجين عن القانون بشكل عام ولذا كان اختياره لموقع القهوة بعيداً عن العمران وداخلاً فى الصحراء . وهذا النمط من المعلمين نجده فى مقهى الأمراء .. إنه المعلم حنش .. حيث يقتصر رواد قهوته على النشالين بشكل عام ..

معلم القهوة والشذوذ :

يتناول نجيب محفوظ حالة اللاسواء أو الشذوذ ، فنجد ذلك عند معلم القهوة (كرشه) وقد ابتلى بذلك الداء ، إنه الشذوذ الذى لا يستطيع منه فكاكاً .. ويتسم تناول نجيب لتلك الحالة بالتحليل والغوص إلى أعمال الشخصية ، نجده يعرض لنا كيفية جهر المعلم بدائه وكيف يدافع عن هذا المزاج العجيب ... كان المعلم كرشه قد شغل بأمر هام ، ومن النادر أن ينصرم عام من حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر ، على ما يسببه له من الكدر والتنغيص ، بيد أنه

كان رجلاً مسلوب الإرادة ، لم يترك له الحشيش من إرادته نفعاً . ومع ذلك كان على خلاف الأكثرية من تجار هذا الصنف فى حكم الفقراء ، لا لأن تجارته غير نافقة ، ولكن لأنه كان مبذراً – فى غير بيته – يبعثر ما يربحه ، وينثر المال بلا حساب ، جارياً وراء شهواته ، خصوصاً هذا الداء الوبيل . (٤٦)

وهذا النموذج الذى يعرضه نجيب لا يستحى من الناس ولا يهمه ما يقولون ، بل كان يجاهر برذيلته ويبذر ماله على دائه اللعين ... ومن عجب أن المعلم كرشه قد عاش عمره فى أحضان الحياة الشاذة ، حتى خال لطول تمرغه فى ترابها أنها الحياة الطبيعية . هو تاجر مخدرات اعتاد العمل تحت جنح الظلام ، وهو طريد الحياة الطبيعية وفريسة الشذوذ ، واستسلامه لشهواته لا حد له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه ... ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته مثاراً للازدراء والاحتقار .. (٤٦) فالناس لا يريحون ولا يستريحون ، ويتلقفون المثالب بأفواه نهمة جشعة . ولطالما قالوا فيه وأعادوا ، فماذا أفادهم التشهير ؟ لا شىء ! وكأنه ولع بتحديهم فراح يجهر بما كان يسره ، وهكذا مضى فى سبيله .. (٤٧)

وفى حالة المعلم كرشة التى يعرضها نجيب محفوظ نلاحظ مدى تأثير المخدرات أقصد الحشيش وما أصاب حياته من تبلد وجمود ، فنجد تبلد السلوك وتبلد المشاعر تجاه الناس وكل المحيطين به .. كل ذلك راجعاً لادمان الحشيش . فهذا التبلد والبرود لا يعود إلى تكوين الشخصية فقط وإنما المداومة الشرهة لتدخين الحشيش يؤدى إلى تلك الحالة من التبلد والبرود .. إلى جانب المخدرات داء الشذوذ والذى يسيطر عليه بشكل قهرى ويجعله مسلوب الإرادة .. ومعنى ذلك أن المعلم كرشة وقع فريسة لداءين قاتلين هما إدمان المخدرات ووقوعه فريسة لشذوذه والنتيجة ضعف فى الإرادة وعدم القدرة على المقاومة والمواجهة ..

" ... لم يكن فيما سبق ليجرؤ على دعوة أمثال هذا الشاب إلى قهوته تستراً

أو حياء ، ثم افتضح أمره ، وذاعت فضيحته فكشف وجهه وارتاد الإثم جهاراً . وكان يقع بينه وبين زوجه من المآسى ما يبقى حديثاً فاضحاً تتناقله

الألسن ، ويتلقفه بشغف أمثال الدكتور بوشى وأم حميدة ، ولكنه لم يعبأ شيئاً . وما تكاد النار تخمد إلى حين حتى يصب عليها نفطاً بسوء سيرته فيضرمها ضراما ، وكأنه وجد أخيراً فى الجهر لذة فلهج بها . وهكذا جلس قلقاً لا تعرف السكينة سبيلاً إلى نفسه الملوثة ، كأنه يجلس على مشواة ... " (٥٤)

المعلم كرشه يدافع عن شذوذه !!

الشىء الغريب أن تجد الشخص الذى يقع فى الرذيلة يدافع عن الرذيلة !! الآثم يود من كل قلبه أن يتخلص من آثامه ويدخل إلى عالم الأسوياء . ولكن أن تجد الآثم يدافع بكل قوته عن إثمه وشذوذه فهذا أمر يجعلنا نتعجب من أمثال هؤلاء . نموذج مثل (المعلم كرشه) لا يمكن اعتباره مريضاً نفسياً ، حيث أنه يدافع عن مثالبه وبكل قوة عقلية ووعى عقلى كامل .. لو أنه فى عداد المرضى النفسيين لوجدناه يأمل التخلص من دائه ويود لو يساعده أحد على ذلك. إما أن نجده يدافع عن شذوذه بهذا المنطق فإننا نعده أحد الآثمين والشاذين من الصعب إقصائهم عن غواياتهم .. وهذا ما لمسناه فى حالة (كرشه) رغم أن من يقوم بهدايته رجل دين له احترامه ويريد له الخير والسلامة والصلاح .. ولكن لا فائدة ..

-إنى أدعوك لما فيه صلاحك وصلاح بيتك ، ولست يائساً من جذبك للخير . اهجر هذا الشاب إنه رجس من عمل الشيطان. وتب إلى ربك إنه غفور رحيم. لو كنت من الصالحين لكنت الآن من الموسرين ، ولكنك تربح كثيراً وتخسر فى بالوعة الرجس كثيراً ، وتبقى على الأيام فقيراً معدماً . فماذا قلت ؟ .

وعدل المعلم عن المكابرة بصفة نهائية ، وخاطب نفسه قائلاً إنه حر يفعل ما يشاء ، وليس لأحد من سلطان عليه ولو كان السيد رضوان الحسينى نفسه ! ولكنه لم يفكر لحظة واحدة فى إغضاب السيد ولا تحديه ، فأطبق جفنيه على عينيه المظلمتين ، وقال بصوت منكر : هذا أمر الله !

فلاح الانزعاج فى الوجه الصبيح وقال بحده : بل أمر الشيطان ! حرام عليك يا شيخ .

فغمغم المعلم قائلاً : لما يأمر الله بالهدى !

-لا تطع الشيطان يهدك الله لما فيه صلاحك : اهجر هذا الشاب أو دعنى أصرفه بسلام .
-فانزعج المعلم وغلبه الجزع ، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه فقال بحزم :
-كلا يا سى السيد ، لا تفعل .
-فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء ، وقال بصوت ينم عن الأسى !
-أرأيت كيف تؤثر الغواية على الهداية ؟!
-ربنا الهادى ؟
-وتولاه اليأس من هدايته ، فقال ضجراً : أقول لك للمرة الأخيرة اهجره أو دعنى أصرفه بسلام .
-فقال المعلم بعناد وهو يتزحزح إلى طرف الكنبة كأنما يهم بالنهوض :
-كلا يا سى السيد . اضرع إليك أن تدع هذا الأمر حتى يأمر الله بالهداية . (٩٥)

فتعجب السيد من عناده الوقح ، وتساءل متقززاً : ألا يخجلك هذا الحرص على هذا الفعل الشائن ؟!

ونهض المعلم قائماً وقد ضاق صدره بالسيد ووعظه ، وهو يقول : أن الإنسان ليقارف أفعالاً كثيرة شائنة ، وهذا واحد منها ، فادع لى بالهداية ، ولا تغضب علىّ ، وتقبل عذرى وأسفى . ماذا يملك الإنسان من أمر نفسه ؟.. (٩٦)

المعلم كرشه : من الفساد السياسى إلى الفساد الشخصى :

هل يمكن الربط بين الفساد السياسى والفساد الذاتى ؟ .. ترى هل هناك علاقة ما بينهما ؟ هناك من يقتنع بذلك فيرى أن الفساد السياسى عامة ينعكس على الفساد الأخلاقى للأفراد فى داخل المجتمع . وربما يميل البعض أن يعطى الأمر نوعاً من التبرير أو التأويل .. ونجيب محفوظ يميل للربط بين ما هو عام وما هو خاص ولنا أن نقبل ذلك الربط وذلك التأويل أو نرفضه ، وإن كنا نرى أن الفساد السياسى فى المجتمع يفسر بدرجة ما الفساد الشخصى داخل المجتمع بصورة أو بأخرى .. فمثلاً : إذا ساد عالم السياسة فى داخل المجتمع الكثير من الأوبئة مثل التزوير والنفاق والدكتاتورية وكل مثالبها فإن النتيجة المتوقعة أن نجد الكثير من تلك السلبيات تنعكس على الأفراد داخل المجتمع وعلى جميع

المستويات فنجد سيادة الرشوة والمحسوبية والنفاق وإباحة كل ما هو خارج القانون . وفى اعتقادنا أن ما يلحظه ويرصده نجيب محفوظ هو فى غاية الأهمية، وإذا كان يفسر الماضى فإننا نعتقد أنه يفسر الحاضر والمستقبل ، فهو تفسير مقبول إذا توافرت شروطه .

وكان المعلم كرشه يتيقظ – على غلبة الذهول عليه – فى المواسم السياسية . وقد اكتسب فى شبابه شهرة فى عالم السياسة تضارع ما اشتهر به بعد ذلك فى الأمور الأخرى ! فاشترك فى ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكاً فعلياً عنيفاً، وقد نسب إليه الحريق الكبير الذى التهم الشركة التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحسين ، وكان من أبطال المعارك العنيفة التى دارت بين الثوار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى . (١٤٧)

إن الشذوذ الذى يعيشه المعلم كرشه ليس وليد اللحظة ، فهو يعانى من الشذوذ بصورة أخرى منذ شبابه فنجده غير أمين فى قوله وأفعاله ولم يعط للقيم أدنى أهمية أو احترام ..

وما أن خمدت الثورة الدموية وجد فيما جد من معارك انتخابية ميداناً جديداً على ضيقه لنشاطه وحماسته ، فبذل فى انتخابات سنة ١٩٢٤ جهداً مشكوراً ، وصمد ببطولة لمغريات انتخابات سنة ١٩٢٥ – ولو أنه قيل وقتذاك إنه قبل رشوة مرشح الحكومة ولكنه أعطى صوته لمرشح الوفد . وأراد أن يلعب الدور نفسه فى انتخابات صدقى – فيأخذ النقود ويقاطع الانتخابات – ولكن عيون الحكومة راقبته يوم المعركة ، وحملته مع غيره فى لورى إلى مركز الانتخاب فخرج على إرادة الوفد مرغماً لأول مرة . وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة ، فطلقها بعد ذلك وتزوج التجارة ، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة ، وانقلب نصيراً لمن (يدفع أكثر) . وجعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسية من فساد ، قائلاً إنه إذا كان المال غاية المتنابذين فى ميدان الحكم فلا ضير أن يكون كذلك غاية الناخبين المساكين ! وفضلاً عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه ، وغلبه الذهول ، وركبته الشهوات ، ولم يبق فى روحه من الثورات القديمة إلا ذكرى غامضة ربما كر إليها الخيال غاشاً بها متباهياً فى بعض ساعات الصفاء حول

المجمرة ، ولكنه نبذ فى قلبه جميع قيم الحياة الشريفة ، ولم يعد يعبأ شيئاً من بعد ذلك إلا (الكيف) أو (الهوى) وما عدا ذلك (اردم) على حد قوله . (١٤٨)

المعلمة قرنفلة فى (الكرنك) :

صاحبة المقهى أو معلمة المقهى تتسم بسمات خاصة أولها قدرتها على القيادة وقدرتها على تسيير الحركة وكل ما يختص بالعمل وفق نظام محدد ولا تسمح لأحد بالخروج عن هذا النظام . والكل داخل القهوة تحت أمرها وينفذوا ما تأمر به .. هذه السمات ستجدها واضحة عند النماذج التى يعرضها نجيب محفوظ .

لمحت فوق كرسى الإدارة امرأة دانية الشيخوخة ولكنها محافظة على أثر جمال مندثر ... الراقصة قرنفلة ، حلم الأربعينات الوردى ، قرنفلة ... ونظرت إلى قرنفلة طويلاً ، كلما وجدت فرصة . انطفأ سحر الأنوثة وجف رونق الشباب ولكن حلت محلهما روعة غامضة وأسى مؤثر، ما زالت نحيلة رشيقة يوحى عودها بالنشاط والحيوية . وثمة قوة مهذبة مكتسبة من التجربة والعمل . أما خفة الروح فآسرة نفاذة . تحرك نظرتها الشاملة الساقى والجرسون وعامل النظافة وترعى الرواد المعدودين .. (٤)

وصاحب المقهى كانت فنانة .. كانت راقصة فى الماضى إنها نجمة عماد الدين فى الماضى الذاهب .. ومع تغير الزمن افتتحت مقهى الكرنك .. وحافظت على سمة الاحترام ، كانت منذ عهدها بالرقص تؤمن بالاحترام كقيمة تتمسك بها ..

وحدث ما اعتبرته مفاجأة سارة . بدا أن قرنفلة أرادت مجاملتى بصفتى زبوناً جديداً فقامت من مجلسها وجاءتنى تخطر فى بنطلون كحلى وبلوزة بيضاء ، وقفت أمامى وقالت :

- شرفت .. تصافحنا وأنا أشكر لها مجاملتها فسألتنى ..
- يخيل إلىّ أنك تذكرتنى ؟
- فعلاً ، من ينسى قرنفلة ؟ (٦)

.....

وتتابعت اللقاءات وتراكمت الأحاديث وتوثقت المودة وتذكرت يوماً كم كانت محترمة بقدر ما كانت فاتنة بارعة فقلت لها: كنت فنانة بارعة ومحترمة معاً، ألم يكن يعد ذلك معجزة ؟! فأجابت بزهو : كان الرقص الشرقى هزاً للبطن والصدر والعجز فجعلته تصويرياً .. ثم هزت رأسها فى دلال وقالت :

أما الاحترام فقد قام سلوكى العام على ألا أقبل علاقة إلا عن حب ولا أمارسها إلا عن زواج . ضحكت هاتفة : ألا يكفى أن يكون الطابع العام هو الاحترام ؟ (٨)

ثم قالت : الحب الصادق يضفى على العلاقة شرعية غير منكورة .

- لذلك لم تتعرض لك مجلتى بسوء . (٨)

وغالباً ما يقع البعض فى حب صاحبة المقهى أو المعلمة ، وقد تكون النتائج فادحة وكارثة بكل معنى الكلمة ولكن عند المعلمة قرنفلة فنجد الأمر مختلف، فقد آمنت منذ البداية بمبدأ الاحترام ولا تسلك أى سلوك يعبر عن الانحراف أو السوء . ولذلك احتفظت بنفسها دائماً بشكل يجعل الجميع ينظرون إليها نظرة تقدير واحترام .

ولكن كثيرين انحرفوا بسببك ! ما زلت اذكر موظف المالية ...

فقاطعتنى هامسة: اسكت، أتقصد عارف سليمان ؟ إنه على بعد أمتار منك، هو الساقى الواقف وراء البار ....

قالت : لم يكن ضحية لى كما قد تظن ، كان ضحية ضعفه ..

وقصت علىّ قصة عادية . فقد جن بها ولكنها لم تشجعه قط . ولم تكن موارده تسمح له بالتردد الدائم على الملهى فامتدت يده إلى اختلاس أموال الدولة . وظهر بين الرواد كالوارثين ولكنها لم تنل منه مليماً واحداً ولم تنشأ بينهما إلا العلاقة الرسمية التى تنشأ بحكم تقاليد الملاهى الليلية ، ولم يتقدم خطوة حتى ضبط متلبساً فقدم للمحاكمة ودخل السجن .

– إنها مأساة ولكن لا ذنب لى فيها ، ولما غادر السجن بعد سنوات جاءنى فى الملهى نفسه وقال لى لقد ضعت إلى الأبد ، رثيت له وتوجست منه خيفة فتشفعت له عند صاحب الملهى فألحقه بوظيفة جرسون

، ولما اعتزلت العمل وفتحت هذا المقهى اخترته لعمل الساقى وهو يقوم به على ما يرام . (٩)

المعلمة قرنفلة والحب :

المعلمة أو صاحبة المقهى غالباً ما تجد الكثيرين يقعون فى غرامها ، ولكن هى صاحبة القرار وهى التى تحدد الطريق الذى يسير فيه الحب ، وكل سلوك المحبين يتوقف على سلوك المعلمة سواء بالإيجاب أو السلب . والمعلمة قرنفلة كانت تحب بطريقتها التى يحيطها الاحترام أو الالتزام كما اعتادت ... وقرنفلة عاشقة الفن وأصوله تقع فى الحب ولكنه حب شاب ذا فكر وذا توجه وذات ايديولوجية فكرية .. أحبت فيه الشاب والثورة والإرادة والأمل فى الغد الأفضل .. وقعت فى حب حلمى حماده .. ذو التوجه اليسارى والأمل فى مستقبل أفضل ..

عندما ترجع قرنفلة من عند الحلاق تسترد إلى حين قدراً من الجمال وتشتعل الحيوية فى عينيها العسليتين . وأغرانى ذلك مرة لأن اسألها :

– لا زواج الآن ولا ذرية ؟

وتمتمت لغير ما سبب واضح : الحب .. الحب .

فقلت بأسى : طالما تمتعنا بحب من نحب ولكن لا يخلد من الحب إلا الخيبة ...

– الخيبة ؟ هى الحب الذى ينجو من مخالب الواقع ويبقى أملاً خلاباً .

فبحذر سألت : هل خاب لك حب ؟

– ليس ذلك تماماً ولكن الحب يتدلل أحياناً .

أحدث ذلك أيام المجد ؟ .

– قد يحدث فى أى يوم .

تشوقت إلى سماع المزيد ولكنها تجاهلت رغبتى ولحظت بطرف عينيها زين العابدين عبد الله وقالت :

– أنظر إليه .. إنه يحبنى ، ماذا يريد ؟ يقترح مشاركتى فى المقهى وتحويله إلى مطعم ولكنه يطمع أولاً فى فراشى !

- إنه مكتنز بالدهن .
- أحلام لن تتحقق .
- لعله غنى ؟
- البركة فى أموال الدولة !

فاتجه رأسى بحركة تلقائية نحو عارف سليمان الساقى ولكنها قالت :

- ذاك اختلس من أجل الحب ، أما زين العابدين فينهب من أجل الطمع والطموح ، إنهم أنواع يا عزيزى ، منهم من يأخذ لضرورة العيش لتقصير الحكومة فى حقهم ، ومنهم الطامحون ، ومنهم من يأخذ اقتداء بالآخرين ! وبين هؤلاء وأولئك يجن الشبان المساكين .

فقلت بإصرار : نعود إلى موضوعنا الأصلى .

فقلت بتحد : أنت تعلم أننى أحب !

فقلت باسماً : حلمى حمادة ؟ ! (١٣)

وقالت لى بثقة : وهو يحبنى أيضاً ، ثق من ذلك .

ثم قالت بجدية : ولكنه لا يدرك مدى حبى العظيم .. (١٤)

" المعلمة قرنفلة " .. تعانى آلام الحب وآلام انهيار الوطن :

تعد قرنفلة فى الكرنك نمط خاص ، فهى تقدر الحب ومعناه وتتألم لأى شىء يصيب قلبها أى يصيب حبها . وتلك المرأة تجدها ذا وعى خاص بالروح الوطنية أو النواحى الثورية والقومية فى المجتمع .. كانت محبة للوطن ولقيادة الوطن ، كانت مؤمنة بحبها (لحلمى حمادة) مثل إيمانها بالثورة وقياداتها . كانت إيجابية تجاه حركة الوطن ولم تكن تعيش فى سلبية أو لا مبالاة .. لكن كانت طامتها كبرى .. فقد شاهدت بعينها انهيار حبها ، انهيار الشباب ورموزه والذى اكتمل بانهيار الوطن .. ماذا حدث ؟؟ التنكيل بشباب الوطن هو التعجيل بانهيار حتمى للوطن بأكمله . وتسأل ولا أحد يجيب .. والخوف والرعب يملأ الأرجاء... وتفيق على الانهيار العظيم والهزيمة المروعة ، فكيف هان عليهم أن يهدموا الأوطان ؟؟؟ ..

وجئت يوماً فى ميعادى فوجدت مقاعد الشباب خالية . تبدى المقهى فى منظر غريب وخيم عليه هدوء ثقيل ... أما قرنفلة فجعلت تنظر نحو مدخل

المقهى بترقب وقلق . وجاءت وجلست إلى جانبى وهى تقول : لم يجئ أحد منهم ، ماذا جرى ؟ (١٧)

ومضت الليلة دون ظهور أحد منهم ، وحتى مساء اليوم التالى لم يظهر لأحد منهم أثر . وتغير طبع قرنفلة ومضت تنتقل بين الداخل والخارج فى عصبية .

وكرت الأيام والأسابيع حتى أوشكت قرنفلة على الجنون ، وحزنت لها حزناً بالغاً حتى قلت لها :

- أنت تهلكين نفسك بلا رحمة .

ويوماً قال طه الغريب : سمعت عن أنباء اعتقالات واسعة

فوجمنا جميعاً ، وقلت : ولكن أغلبيتهم تنتمى للثورة .

وكانت قرنفلة تتابع الحديث بذهول كالبلاهة وترفض أن تفهم شيئاً أو تقتنع بشىء . (١٩)

أهملت قرنفلة عملها . كانت تغيب بعض النهار كله وأحياناً اليوم بأكمله، تاركة المقهى لعارف سليمان وإمام الفوال . وقالت لى : لم أدع أحداً من كبراء الماضى أو الحاضر إلا زرته وسألته ، ولا جواب عند أحد ولكنك تسمع كلاماً غير متوقع مثل (من أدرانا) أو (حذار من السؤال وإلا ساءت العواقب) أو (لا ترحبى بالشباب فى مقهاك) . ماذا حصل للدنيا ؟! (٢٠)

وما ندرى ذات أصيل إلا والوجوه الغائبة تهل علينا بفرحة مباغتة ... هللنا مرحبين

. وسأل سائل : اين كنتم يا جماعة ؟

فأكثر من صوت أجاب : فى نزهة .. وضجوا بالضحك .. (٢٢)

.....

وللمرة الثانية اختفى الشبان ... وترنحت قرنفلة تحت عنف الضربة وتأوهت قائلة :

- ما كنت أتصور أننى سأتعرض لمرارة التجربة مرة أخرى .

.....

ولدى إقبالى على المقهى ذات مساء لمحت وجه قرنفلة مشرقاً على غير عادته . دهشت حقاً واجتاحنى فيض من الأمل فاندفعت نحو الداخل ، وسرعان ما وجدتنى حيال الأصدقاء المحبوبين ... وجالستنى قرنفلة مرة فلاحظت أنها راضية ولكنها غير سعيدة . وكنت أعلم أنها لا تجالسنى إلا للبوح بشىء فقلت افتتح الحديث : لندع الله ألا يتكرر المكروه ...

فقالت بأسى : ادع الله كثيراً جداً ، قل له إننا فى حاجة شديدة إلى دليل حى على رحمته وعدله .

وعانت المعلمة قرنفلة من الحيرة والقلق والاضطراب لما يحدث بدون فهم واضح ، وكانت تتساءل لمصلحة من يحدث كل ذلك ، كانت قرنفلة تملك الوعى والإدراك والحب . فلم تجد تفسيراً معقولاً لكل ما يحدث وشعرت بالأسى والأسف لحالة الوطن وما وصل إليه ..

... وفى أواسط ربيع العام وقع الاختفاء الثالث :

أما قرنفلة فقد صمتت طويلاً فوق كرسى الإدارة ثم استرسلت فى الضحك طويلاً حتى دمعت عيناها وجعلنا ننظر إليها من مجلسنا صامتين .

وسكتت دقيقة ثم استأنفت : هل نحزن لأمور تقع بانتظام مثل الشروق والغروب ؟ .. سوف يعودون ، وسيجلسون بيننا كالأشباح ، وعهد الله أن أسمى المقهى وقتذاك (مقهى الأشباح) ثم نظرت إلى عارف سليمان وقالت آمرة : قدم كأساً لكل زبون من زبائننا الكرام لنشرب نخب الغائبين ! (٣٩)

إن شر البلية ما يضحك .. وقد تعملقت البلية ، ولم تجد قرنفلة دموع لها. فضحكت ، ضحك السخرية ، ضحكات الألم الذى يفوق كل تصور .. عندما يصبح الألم أكبر من أن يحتمل داخل الذات يتحول إلى سخرية مروعة وتنفجر الضحكات الهستيرية لهذا الواقع ..

وهكذا عاشت قرنفلة ألم الحب وألم الانهيار للوطن .. نموذج للمعلمة التى تعيش بنبض الوطن ، ونبض القلب .

وعقب وقوع الهزيمة بأسابيع عاد الغائبون أو بالأحرى عاد إسماعيل الشيخ وزينب دياب وآخرون .. ووقفت قرنفلة وراء الخوان وتساءلت : اين حلمى ؟ ..

ثم تقوس ظهرها فوق الخوان كأنما تعانى تمزقاً فى بطنها . لبثت كذلك مدة فى صمت شامل، ثم رفعت رأسها وهى تتمتم: الرحمة.. الرحمة يا أرحم الراحمين !

كان الحزن – كالفرح – ينسى بسرعة فى تلك الأيام . وقد قدمت العزاء لقرنفلة ولكنها لم تفقه لكلامى معنى . (٤٢)

نموذج خاص يقدمه نجيب محفوظ لمعلمة القهوة .. معلمة تستشعر الحب والوطن وتتألم بصدق فالحب فى داخلها قيمة من القيم الخليلة .. سواء قيمة الحب على المستوى الفردى أو الحب على المستوى العام للوطن .. كان الحب لدى قرنفلة يتدثر بالاحترام ..

معلمة القهوة فى (العالم الآخر – فى شهر العسل) :

نموذج مختلف تمام الاختلاف عن السابقة ، المعلمة هنا لا تفهم معنى للوطن أو معنى للحب، إنها تعيش فى عالم آخر، عالم الخمر والحشيش والجنس ، عالم النساء والفتوات والبلطجية .. إنها معلمة تعيش داخل العطفة .. بمعنى آخر إنها قوادة تفتح القهوة لكل راغب متعة ...

جميع المقاعد خالية فى تلك الساعة من الأصيل عدا مقعدين أمام القهوة، احتلت المعلمة أحدهما وجلس على الآخر تابع شاب لها . (٣٠)

بصقت المعلمة بازدراء وقالت : الليلة موسم ، وعلينا أن نحقق أكبر ربح ، بالإضافة إلى نفقات الحكومة والبلطجية . (٣١)

المعلمة هنا تملك القوة والقدرة ، وهى لا تفكر إلا فى أن تحقق الربح وجمع الأموال من أجل البلطجية والحكومة . والكل يعلم أن هذا المكان يدار لكل ما هو خارج الآداب ، إنه مقهى للدعارة تقوده المعلمة ويساعدها فى ذلك التابع ، الشاب القوى الذى يحمى المكان ..

هذه الصورة كانت موجودة فى بداية القرن الماضى ، وهنا نقول أن نجيب محفوظ فى رواياته يقدم لنا رصداً تاريخياً لما كان فى قاهرة الأربعينات..

غادرت المعلمة القهوة . هرع التابع إليها فقالت له : إنى ذاهبة مرة أخرى ، سأوفق بإذن الله انتبه ، وإذا مر قبل أن أرجع فتصرف بحكمة – (تقصد الفتوة) - ، إياك والتهور وإلا هدمت الدرب فوق رءوسنا !! (٤٣)

هذه الصورة التى يعرضها نجيب محفوظ للمعلمة .. هى صورة خارجة عن إطار المجتمع الذى يموج بشتى التيارات القومية والسياسية . إنها فى عالم خاص بها لا تفهم الدستور ولا القومية ولا الوطن ولا الحرية ، كل تلك المقولات بعيدة عن منطقة وعيها ، هى موجودة من أجل مهمة أخرى ، إنها تعيش لعالم المتعة والجنس والحشيش ، إنها لا تفهم إلا أنها معلمة للقهوة وقوادة على درجة كبيرة من المهارة .

ظهر فى مدخل الدرب شاب يافع يدل مظهره على أنه تلميذ أو طالب .. حيا المعلمة برفع يده إلى جبينه ثم سألها بأدب : أين صاحب القهوة ؟ فأشارت إلى نفسها وهى تقول : محسوبتك صاحبة القهوة .

فقال الشاب بجدية : يجب أن أقدم نفسى أولاً ، أنا مندوب لجنة الطلبة .

– فتساءلت مازحة : ولم لم تجئ معك باللجنة لتقضى سهرة الموسم عندنا؟

فقال بجدية مضاعفة : نحن مندوبى اللجنة انتشرنا فى أنحاء القطر للدعوة إلى قرار خطير !

– قرار خطير ؟

– تعلمين حضرتك أن غداً هو الذكرى الأسيفة لمرور عام على إلغاءدستورالأمة ؟

فقالت وهى ما زالت تتفحصه بذهول : حضرتى لم تعلم .

– دستور الأمة !

– دستور يا أسيادى

– الوطن يطالبنا .....

فقاطعته : ما الذى جاء بك إلى هذا الدرب ؟

– وقع شارع كلوت بك فى قرعتى ، مررت على المحال والدكاكين والمقاهى فوجدت استجابة شاملة ، سيغلقون الأبواب جميعاً بلا استثناء غداً ، وأنا عائد من مهمتى تنبهت إلى هذه العطفة التى لم ألحظها فى مرورى الأول .

- ألم تدخلها من قبل ؟ كلا يا سيدتى .
- لم لم توجه دعوتك إلى الفتيات الجالسات أمام الأبواب ؟
- على فكرة ، لم يجلسن بهذه الصورة المنافية لتقاليدنا ؟
- اجلس ، اجلس واشرب شيئاً ، اشهد الله أنك أظرف شاب قابلته فى حياتى!(٣٣)

المعلمة فى هذه القهوة هى نموذج واقعى وحقيقى للمرأة الجاهلة البعيدة عن كل أمور السياسة والوطنية ، هى نموذج حى لصاحبة القهوة التى لا تفهم فىحياتها إلا حياة الليل وما فيه من متعة ولذة وكل ما هو غير مباح .. ولذا نجدها ترد على الشاب الوطنى بشكل استهزائى واستهتارى لكل ما يقوله الشاب. بل هى تندهش وتتعجب مما يقوله الطالب. فهى تفهم أن يأتى الشاب الطالب بغية المتعة والترفيه ، أما أن يأتى إليها طالب ليحدثها فى أمور سياسية وأمور الوطن والإضراب والدستور فهذا يمثل لها قمة العجب والاندهاش .

وبخبرة المعلمة ومعرفتها كيف يمكن أن تنفذ إلى داخل الشاب والطلبة فى هذا السن ، فنجدها تتحاور مع الشاب حتى تجعله يستطيب جو القهوة وجو الرقص والعرى والمتعة ، وهذا ما يصل إليه الشاب .. فمن السياسة والدستور إلى السباحة عبر العيون ودغدغة المشاعر والقلوب .

فقال الشاب وهو يدارى استياءه : لا وقت للمزاح ، ولا للخروج على الإجماع .

فهتفت المعلمة بحدة لأول مرة : يا دافع البلاء يارب ، لا يكفينا رجال الحكومة والبلطجية حتى ينضم إليهم مندوب الطلبة والدستور !

أجالت المعلمة عينيها بين النساء القابعات أمام البيوت وصاحت بهن: اهتفن معى .. يحيا الإضراب . وهتف أكثر من صوت : يحيا الإضراب .

ثم ضج الدرب بالضحك . وإذا بالتابع يرجع على صوت الهتاف . ولما رأى الشاب ارتسمت الدهشة فى أساريره . وتنبه الشاب إليه فبادله دهشة بدهشة . هرول كل منهما نحو صاحبه وتعانقا بحرارة .

وقال الشاب : لا أصدق عينى .

فقال التابع : ماذا جاء بك إلى هنا ؟

وعند ذاك سألته المعلمة : تعرفه ؟

جار العمر ، وزميل من أيام المدرسة .. (٣٥)

.....

نظر الشاب فيما حوله وقال : أوضح ما غمض على أمره فى هذا الدرب .

-لكل شىء وقته ، لا تتعجل !

-أتقيم هنا ؟ نعم

-أتعمل هنا ؟ نعم

-وهؤلاء النسوة ؟

-لطيفات وطوع الأمر !

-مظهرهن فاقع مبتذل

-بدأت تفهم .

-حقاً !

-وتطالبهن بالإضراب ؟

وضحك عالياً . وهم الشاب بالكلام ولكن الموسيقى عزفت بالقهوة فعادت الفتاة إلى الرقص . وانجذبت عيناه إليها بقوة فتابع رقصها باهتمام وإعجاب . ثم شعر بعينى التابع تتجسسان عليه فابتسم مرتبكاً بعض الشىء وتمتم : فتاة جميلة !

-حقاً !

-من الطراز الذى يستهوينى !

-ترى ما نوع هذا الطراز ؟

-يصعب تعريفه ، ولكنها ترقص فى قهوة خالية !

-مجرد تمرين فالسهرة لم تبدأ بعد .. (٣٧)

وتوقف العزف والرقص .. وسرعان ما جاءت الراقصة وجلست إلى جانب التابع .

-صديقى معجب بك ! من أول نظرة ؟

- نظرة كفاية وفوق الكفاية !

obeikandi.com

فقال الشاب فى تلعثم : لا شك إنى سعيد الحظ .

فقالت الفتاة باسمه : ما أجمل أن أرى وجهاً يحمر خجلاً !

فقال التابع للشاب بتحريض : أثبت رجولتك !

فغمغم الشاب بأصوات مبهمة حتى قالت الراقصة مازحة : تاتا .. تاتا .. خط العتبة !

فنهرها التابع قائلاً : شجعيه ولا ترعبيه ! (٣٨)

.....

لكن التابع بادره قائلاً : أن كنت تحبها حقاً فهى لك !

- لى ؟ !
- النظرة والحب والتنفيذ تحدث فى دربنا فى ساعة واحدة !
- أفندم ؟ (٤٠)

.....

ومالت الراقصة بغتة نحو الشاب فقبلت خده . ضحك التابع وقال : قم .. لا تؤجل عمل اليوم إلى غد ، فإن يوم الدستور غد ! (٤٣)

(القهوجى – النادل) :

هو أحد العناصر الأساسية المكونة للقهوة ، فهو الذى يقوم على تقديم الطلبات إلى الزبائن ويقدم لهم كل ما يطلبون إلى جانب أنه يقوم بالحساب ، ومن مهام تلك المهنة أو من المتطلبات الأساسية التى ينبغى أن تتوافر فى هذا الشخص أن يكون بشوشاً فى وجه زبائنه ، ويكون بلغة أهل الكار (حرك) وفهلوى . حتى يريح الزبائن ويحبوا المكان (القهوة) .

نجيب محفوظ يعرض لنا نماذج متعددة من القهوجى أو النادل . وهو لا يركز عليه كثيراً فى العمل بل إننا نراه يتحرك بسرعة ونسمع صوته بين الحين والآخر .

فى خان الخليلى .. نجد النادل صاحب صوت جهورى ، إلى جانب أنهم ينغمون أصواتهم وهم يعملون ... (والندل لا يكفون عن النداء والطلب فى أصوات ممطوطة ملحنة " واحد ساده ... شاى أخضر .. تعميرة على الجوزة .. وشيشة حمى .. ") . (٢٦)

وأحياناً ما يكون النادل أو القهوجى ذا منظر غير سار أو هو شخص لا يهتم بنفسه وزيه غير جيد .. هذا النموذج نصادفه فى قهوة النوبيين ..

فى السراب .. فى قهوة النوبيين ... (واتخذت مجلسى من القهوة فجاءنى النادل ذو الجلباب الباهت ، والطاقية المائلة إلى قذاله كاشفة عن ذؤابة متصلبة ، والنعل المنجرد ، وحيانى تحية لعله لا يلقيها إلا للزبائن القدماء ...) (٢٦٧)

وأهم ما يمكن أن نلاحظه أن القهوجى هو دينامو الحركة فى القهوة ، هو سر نشاطها وفعالياتها منذ أن تبدأ فى الصباح وحتى ينتهى العمل ..

فى زقاق المدق نجد القهوجى منذ الساعات الأولى فى الصباح الباكر يعد للعمل فى القهوة ..

بيد أن النشاط يدب فى الأركان منذ الصباح الباكر ، يفتتحه سنقر صبى القهوة فيهيئ المقاعد ويشعل الوابور (٣٠) ... ودار سنقر كالنحلة لا يسكن ولا يكف عن الصياح .. (٥٢) ..

وظل سنقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات فى الصندوق .. (١٤) وخاطب سنقر الشيخ درويش قائلاً برقة : انتصف الليل يا شيخ درويش (١٥) القهوجى يظل يمارس عمله منذ فتح القهوة صباحاً حتى ينتهى العمل ليلاً .. يقدم الشاى لهذا والقهوة لذاك . ويوصى بتحضير نار للشيشة وهكذا وإلى جانب ذلك نجد هذا النادل أو القهوجى على علم بالكثير من المعلومات سواء عن المنطقة أو عن الأشخاص ، وكثيراً ما نجد القهوجى يتبادل الحديث مع الزبائن بتودد وذلك نتيجة المداومة أو من أجل كسب بعض النقود فيما يسمى (البقشيش) ...

فى اللص والكلاب .. تناول سعيد مهران الشاى من الصبى ثم رفعه إلى فيه قبل أن يبرد (٤٦)

وانحدر إليهم صبى القهوة حاملاً نارجيلة تتوهج جمراتها ويتطاير منها الشرر وطقطقاً ... (٤٧) وقلنا أن صبى القهوة دائماً يتصرف بتودد ، أيضاً إنه طوع أمر معلم القهوة .. ففى اللص والكلاب مثلاً : .... ولما جلسا على

الأريكة ، نادى المعلم صبيه وقال له : بصنعة لطافة قل لنور أن تأتى (٤٩) ... ويعلق صبى القهوة بتودد على سعيد مهران فقد كان من أنصاره ..

قال صبى القهوة بحماس : أى ضرر فى سرقة الأغنياء ! (٩٢)

ويحب القهوجى الزبائن أو المترددين على المقهى وخاصة من يعطونهم بقشيشاً .. فى زقاق المدق ..

كما أنه أسر سنقر بما كان ينفحه من بقشيش لا عهد له من قبل . (١٥٦)

فى بداية ونهاية .. نجد النادل (القهوجى) ..

واجتاحت نفس حسن موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ على صبرى قهوة ، ثم قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب ونارجيله .. (٤٠)

وفى بعض الأحيان وخاصة فى الليل عندما يقترب العمل من نهايته نجد معلم القهوة وصبى القهوة .. فى بداية ونهاية .. هذا صاحب القهوة وقد أخذ يراجع حساب اليوم مكوماً الماركات فى طبق صاج كبير ، على حين وقف النادل مستنداً إلى إحدى ضلف الباب واضعاً إحدى يديه فى جيب المريلة يعبث بالقروش فيتصاعد وسواسها فى إغراء شهى . (١٢٠)

فى الحب تحت المطر ... انتصف الليل فخلت مقهى الانشراح بشارع الشيخ قمر من زبائنها ، لم يبق من عمالها إلا عم عبده بدران النادل وعشماوى ماسح الأحذية .. (٩)

وكما أشرنا فإن القهوجى يملك معرفة عن الأشخاص وعن المنطقة المحيطة بالمقهى.. وهذا راجع لاحتكاكه بالزبائن وتوده إليهم.. فى بداية ونهاية.. وفى قهوة على صبرى ..

اقترب صبى القهوة من الأستاذ على صبرى وهمس فى أذنه (١٥٦) . وهذا الهمس كان يبلغه بحقيقة الفتوة الذى دخل المقهى ..

وجاء النادل يقول ضاحكا : أطلق الناس عليك لقب (الروسى) لأنك صرعته برأسك (١٦٠) وهذا يعد تودداً من القهوجى لحسن بعد أن صرع البلطجى الذى أراد أن يفرض سطوته على القهوة . واستكمالاً لمعرفة القهوجى

بالأسرار والمعلومات التى قد يجهلها الآخرون فنجد فى همس الجنون فى قصة (الشر المعبود) النادل ومعرفته بالمكان والأشخاص ..

ألقى الشاب نظرة على البناء وقد لاحت فى عينيه الأحلام وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه الممتلئتين ، وغادر السيارة فبدت قامته الرشيقة وبذلته الأنيقة ، ودخل إلى القهوة واختار ركناً قصياً وكان المكان خالياً ساكناً ... فجلس يحتسى فنجاناً من القهوة والنادل على بعد منه يرمقه بنظرة ملؤها الإنكار والدهشة .

ولكى يقطع الشك باليقين نادى النادل وسأله وهو يشير بيده إلى الموضع الخلاء الذى أحدث ارتيابه : ألم تكن توجد هنا أكواخ من الصفائح ؟

فهز الغلام رأسه علامة الإيجاب وقال : بلى ، يا بك .

- فأين ذهبت ؟ .. هدمتها الحكومة ..

قطب الشاب جبينه وسأله : متى .. ولأى سبب ؟ .. منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن تأكد البوليس من أن ساكنيها من اللصوص والقتلة .

- كان يوجد هنا رجل مغن أبو لبة .. أبو رنة لا أذكر .. ألا تعلم أين هو ؟

فتفكر الغلام دقيقة ثم قال : لعله أبو سنة يا بك .

- أظنه هو ، كان يغنى غناءً جميلاً وينشد إنشاداً ساحراً ..

نعم هو يا بك . ولكنه شنق وا اسفاه !

وانزعج الشاب وسأله : أتقول إنه شنق ؟ .. نعم شنق بغير شك.

- ولماذا شنق ؟ لسبب تافه جداً .

فاستولت الدهشة على الشاب وسأله : كيف يشنق لسبب تافه .. ماذا فعل؟

فقال الغلام بهدوء : قتل .

فابتسم الشاب بالرغم من انزعاجه وقال : ولكن ليس هذا بالسبب التافه.

- قتل بغياً ..

ولم يستطع الغلام أن يتم حديثه ، لأنه قطعه عليه دخول جماعة من العمال ونداء المعلم له فحيا الشاب وانصرف إلى عمله .. (١٧٣ / ١٧٤) .

ودرجة القهوجى فى المقهى ليست بالأمر الهين واليسير ، فهى مهنة تحتاج إلى تمرين وتحمل الكثير من المصاعب ، وقبل الوصول إلى درجة القهوجى فلابد أن يمر الفرد بمرحلة الصبى الذى يناول نار الشيشة أو بعض الأعمال داخل المقهى التى يأمر بها المعلم .. ونجيب محفوظ يتناول قصة الصبى فلفل وكيف بدأ حتى يصل فى يوم من الأيام لدرجة النادل (القهوجى) .. فى مجموعة همس الجنون .. قصة (فلفل) ..

فى قصة السعادة .....أشياء كثيرة تستثير الاهتمام . منها فلفل وهو غلام فى الثانية عشر أو جاوزها بقليل اسمه الحقيقى طه سنقر ولكنه اشتهر بفلفل ، وهو يسعى بجمرات النار إلى مدخنى النارجيله والجوزه من طلوع الصباح حتى انتصاف الليل . على أن الاصطلاحات لا تخلق اعتباطاً فللغلام من اسمه الجديد نصيب .

كان خفيف الحركة متحفز النشاط فما أن يدعى حتى يندفع نحو داعيه كالنحلة ويقطع النهار كله ونصف الليل لا يقر له قرار أو يسكت له صوت وقد اشتغل فى القهوة منذ عام نظير قرش فى اليوم غير جوزة وفنجان شاى يقدمان له فى الصباح ومثلهما بعد الغذاء وكان بذلك جد سعيد ، يتيه فخاراً كلما ذكر أنه صار قواماً على نفسه وصاحب قرش وأخاً (كيف ومزاج) . وفوق ذلك لم تكن حياته منحصرة فى الحاضر ، كان يرمق بعين الطموح ذلك اليوم حين يأذن له (المعلم) بتقديم النارجيله والجوزة أسوة بالنار والماء فينتقل من درجة غلام إلى درجة صبى ومن يعلم بعد ذلك أين يقف به الترقى ؟! وهو فى سبيل طموحه لا يكف عن تمرين حنجرته بالهتاف والنداء على الطلبات لأن أهمية الحنجرة فى القهوة البلدى تضاهى أهميتها فى نادى الموسيقى .. (٢٨٩)

يعرض نجيب محفوظ مهمة أخرى للقهوجى قد لا تكون واضحة وقد تكون غير معتادة ولكن من الممكن أن تحدث فى بعض الأحيان .. هذه المهمة هى أن القهوجى يحتفظ بالخطابات لأحد الزبائن ، وجدنا هذه الحالة فى مجموعته (الفجر الكاذب) ..

كنا نجتمع كل مساء بالمقهى ، ومرة جاء النادل بالخطاب للصناديقى وهو يقول :

- تسلمته من عامل البريد صباحاً .

تناوله الشاب بدهشة قائلاً :

أول خطاب يجيئنى فى المقهى ... (١٤٠)

النادل الكهل يرصد تغير الناس والانفتام :

كل التغيرات التى تحدث فى المجتمع تظهر فوراً بصورة أو بأخرى فى القهاوى . فى القهاوى يمكن أن تقف على ما يحدث فى المجتمع ورأى الناس فى كل ما يحدث ، فى القهوة تجد السياسة والاقتصاد والجريمة والسرقة والجنس والمخدرات ، القهوة مرآة صادقة للمجتمع وأحداثه ..

- فى مجموعة (الفجر الكاذب) :

وتدخل النادل فى الحديث متشجعاً بالمودة القديمة ، قال :

–الناس يتغيرون ، ليسوا كما كانوا ..

قال صاحبى : سبحان من له الدوام .

فواصل النادل : وتسأل أحدهم عما غيره فينكر ويتهم الآخرين ، صدقنى الدنيا انقلب حالها . (١٧١) تغير الحال وانقلبت أمور المجتمع وانقلب الهرم الاجتماعى ، والكل لا يبحث إلا عن ذاته ومصلحته إنها السياسة والانهيار والتبدل الاجتماعى ... فى مجموعته (الفجر الكاذب) ...

نظر فيما حوله ، وقلقت فى عينيه الواسعتين نظرة حائرة . أقبل النادل، ولما رآه من قريب اتسعت عيناه دهشة وسروراً ، وهتف : مبارك يا أستاذ .. حمداً لله على سلامتك . وتصافحا ، وطلب فنجان قهوة زيادة ولكن الرجل سأله قبل أن يذهب : كيف الصحة ؟

- كما ترى .

وذهب الرجل ورجع بالقهوة ثم صبها فى الفنجان قائلاً : هذا الفنجان على حسابى !

- تشكر .

ولما رجع النادل الكهل إليه قال له : لا أرى أحداً من زبائن زمان !

- لعلهم فى البيوت ، هؤلاء سماسرة ورجال أعمال وسياح ، الانفتاح يا أستاذ

والأصدقاء ألا يجيئون كالعادة ؟

- أبداً .. منذ سنوات طويلة .

فعبس متسائلاً : كلهم ؟

- ولا واحد يوحد الله .

عندك فكرة عنهم ؟

- طبعاً ، القاسم والأرملاوى ورضوان مدرسون فى السعودية .

السعودية مرة واحدة ؟

- خير وبركة .

والقائمة السوداء ؟ لا سوداء ولا بيضاء ، وأدوا فريضة الحج أيضاً .

ضحك على رغمه فقال النادل : سيملكون الشقق والسيارات ، لم لا ؟

والسيوفى ؟ السيوفى وبدران ورزق الله فى فرنسا ، صحافة عربية ، ثراء أيضاً ، وقيل أن رزق الله اعتنق الإسلام !

ضحك مرة ثانية وتساءل : وأكرم ؟

تاب ، ويعمل فى الصحافة القومية .

وجلال ؟ .. يعمل فى الأهالى

لعله جن !

كلا ، الذى جن هو الأستاذ البرديسى !

تعنى أنه فى المستشفى ؟ .. كلا ، يرى أحياناً فى الشوارع يحاور الهواء

أفادك الله .

حتى زملائى فى القهوة هاجروا إلى العراق ، ولولا سنى للحقت بهم .

ربنا يعوض عليك .

فحدجه بنظرة باسمة ثم سأله : وأنت متى تهاجر ؟

فلم يجب وارتسمت على زاوية فمه ابتسامة ساخرة فقال النادل بنبرة ودودة : زمن المبادئ مضى وهذا زمن الهجرة .

- كلامك كله حكمة .. (١١٢ – ١١٥) ..

(تابع القهوة أو فتوة القهوة) :

هناك صورة من القهاوى كانت منتشرة فى الأربعينيات من القرن الماضى .. هذه المقاهى كانت مكان لكل طالب رغبة ومتعة ، فيها تجد الخمور والنساء والجنس والمخدرات .. وهذه القهاوى لا يمكن أن تعمل وتستمر إلا إذا كان هناك من يحميها من الفتوات ، وبقاء تلك المقاهى مرهون بقدرة الفتوة الحامى للقهوة أن يقهر كل الفتوات الذين يتعرضون للقهوة بأى أذى أو تخريب أو يفرض سطوتهم .

فى بداية ونهاية نجد حسن يمثل فتوة القهوة إنه التابع أو حامى المكان...

قال على صبرى باطمئنان : إنى متفائل خيراً . هذا المكان مبارك ، وهو أصل ثروة محمد العربى نفسه ، وتساءل حسن من أين يأتى للأستاذ الثروة التى يبدأ بها هذه الحياة الجديدة ؟ .. زينب الخنفاء ؟! هى فوق الأربعين على أحسن الفروض ، وليس بها من جمال فيما عدا جسمها البقرى ولكنها لقية وذات ساعدين مثقلتين بالذهب . لا داعى للحسد ما دام سيحظى بنصيبه من هذه الثروة . فرجت ، ولعل ليالى التسكع والجوع قد غادرت إلى غير رجعة . ثم سمع الأستاذ يقول :

- وماذا ينتظر منى ؟

ألقى سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقاً بما ينتظر منه ، فقال الأستاذ :

- أنك أدرى الناس بهذه الأحياء ، ففى كل متر مربع بلطجى أو برمجى أو سكير عربيد فمن لهؤلاء ؟ .. أنت ! وهناك المخدرات وتجارتها فن هائل يطلب مهارة وقوة وجرأة فمن لها ؟ ... أنت !

وابتسم حسن ابتسامة عريضة ، ظلت مرتسمة على شفتيه طويلاً . وداخله سرور وحماس وفخار . هذه هى الحياة حقاً ، حياة تدب تحت مهاوى النبابيت ومساقط الكراسى وفى دهاليز الغرز، حيث السماء ذهب والأرض أشواك والطريق مسارب شتى يفضى بعضها إلى اللذة والعزة وبعضها إلى السجن والموت . فها هنا وطنه ومراحه ، وما هو بالغريب فى هذا الدرب

المتعرج المتلاطم الشرفات ، حيث تختلط آهات الدلال بعواء العربدة ، وأريج البخور بعرف الخمور ، وسباب المتعاركين بقئ المخمورين ، إلى غناء وعزف وقصف بوسعه أن يقضى بين أحضانه أعماراً دون ملل ، يأكل ويشرب ويربح ويسكر ويحشش ويغنى .

وأشرق وجهه بنوع الأمل وألقى على ما حوله نظرة . كان السكون يتبدد تحت أقدام القادمين . فهذه ضحكات ممطوطة ، وأرداف متأرجحة ، ونظرات فاجرة ، عارمة . وفتحت الأبواب وأحرق البخور ، وصفت المقاعد ، وطقطقت ضحكة ولعلعت أخرى . (١٥١ / ١٥٢)

فتوة القهوة يدخل الامتحان :

فى بداية ونهاية .. يدخل الفتوة (التابع) الامتحان وفيه يثبت جدارته ويفرض حمايته وساعتها يهابه الجميع ..

واقترب صبى القهوة من الأستاذ على صبرى وهمس فى أذنه قائلاً :

- محروس الزنجى . فتوة رهيب يعرفه الحى كله ..

فسأله الأستاذ بقلق : ترى هل يمكث طويلاً ؟

واختلس على صبرى نظرة من الزنجى ... فانقبض قلبه خوفاً وإشفاقاً ، ثم تراجع فى سكون إلى منصة التخت حيث يجلس حسن مع بقية الأفراد ، وأومأ إليه ثم انتحى به وراء المقصف ، وأسر إليه ما قال الغلام ثم سأله : ألا يحسن بنا أن نستدعى المعلمة زينب الخنفاء لتعالج هذه المصيبة بحكمتها ؟

فقال حسن وهو يتفحص عن بعد الزنجى محروس : لا أوافق على أن نستغيث بامرأة . لن تجدى هذه السياسة فى هذا الدرب ، دع الأمر لى ..

- يقولون إنه فتوة شديد البأس .

فابتسم حسن قائلاً : هذا ما يقال عنى أيضاً ولكن أهل الدرب لا يعلمون ، دع الأمر لى .. ثم قال للأستاذ : ستكون معركة شديدة ، لكن هيهات أن يكون لنا عيش هنا بلا معركة ظافرة !

- وإذا لم تكن ظافرة !
- اعتمد على الله وعلىّ ..

لن يفر من المعركة مهما تكن النتيجة ، وهل من سبيل إلى رفع مكانته عند الأستاذ وفى الحى كله إذا تفادى هذه المعركة ؟ . ولعل على صبرى على حق فى تخوفه ، فالقهوة قهوته والمال ماله ، ولكن مستقبله هو يتوقف على نتيجة هذه المعركة ، وفى سبيل هذا فليذهب على صبرى نفسه إلى الجحيم . ولا ينبغى أن ينسى إلى هذا كله فتيات زينب الخنفاء فما من سبيل إليهن إلا بنصر أن آجلاً أو عاجلاً ، فحظه فى الحياة ، وربما حظ أسرته المنهارة – خطرت له هذه الخاطرة كالمعنى المتداعى – يتوقفان على خوض المعركة . (١٥٧)

المعركة الحامية طقس أساسى فى مهمة التابع :

فى هذه المهنة من الحتمى أن يدخل التابع المعركة مرة وأكثر وإلا فلن يكتب له البقاء والعيش فى تلك المهنة .. مهنة تعتمد على القوة والشجاعة والقدرة على حماية القهوة ونسوانها ...

وغادر حسن موقفه فى ثبات وهدوء واقترب من الزنجى بخطو وئيد حتى وقف أمامه ، ثم قال بهدوء : سلام عليكم !

- وصاح به الزنجى : وعليك وعلى أمك اللعنة ، ماذا تريد ؟

وحافظ حسن على هدوئه الظاهرى ، وقال بنبرات واضحة : سمعتك تهتف طالباً كونياك فرأيت من واجبى أن أخبرك بأن الدفع هنا مقدم ..

فرمى الزنجى ببصر هادئ إلى الشاب ، وتساءل ساخراً : حامى القهوة؟ .. هه ؟ فقال حسن بهدوء : وأحب أن أقول لك أيضاً أن هذه المعاملة خاصة بالزبائن غير المحترمين.. ومرت ثوان . وفى أثنائها كان الزبائن القريبون يتدافعون إلى خارج القهوة ، وامتلأ الطريق فيما يلى مدخل القهوة بالمارة والنسوة من كل لون وسن .. (١٥٨)

ودارت المعركة بينهما وكانت شرسة بكل المقاييس بين فتوة يفرض سيطرته على الحى بأكمله وبين فتوة يتقرر مستقبله بتلك المعركة أما البقاء أو الرحيل وقد يكون الرحيل بالموت ..

ولم يضع حسن وقتاً مطمئناً إلى سيطرته على الموقف فانقض على خصمه .. ونطحه بجبهته بقوة خارقة فى رأسه ، فكان لاصطدامهما طقطقة تقشعر لها الأبدان ... وتفجر الدم من رأس محروس ... ثم وجه حسن لعنق

خصمه المكشوف ضربة من حافة كفه – كالسكين – فشهق الزنجى وسقط على الأرض غائباً عن الوجود . وقف حسن عند رأس خصمه وصدره يعلو وينخفض ، تهزه نشوة الظفر ...

ورأى الأستاذ على صبرى يبتسم إليه .. وسمعه يهمس فى أذنه : تعال معى أقدم لك كأساً من الكونياك . ثم قال بإشفاق : لشد ما تعبت

فغمغم حسن بثقة : كانت معركة لابد منها .

وجاء النادل يقول ضاحكاً : أطلق الناس عليك لقب (الروسى) لأنك صرعته برأسك! (١٦٠) تلك هى حياة التابع (فتوة القهوة) كما كان يرغب وكما كان يتمنى ، حقق الانتصار من أجل أن يتوج عملياً بأنه حامى القهوة وفتوتها .. حياة شاقة وليست باليسيرة ...

والحق أنه وجد الحياة أشق مما كان يتصور . كان يغنى فى تخت على صبرى ، وينبرى للعراك إذا دعى الداعى ، ويتجر بالمخدرات فى حدود ضيقة، وفى حوزته امرأة لا بأس بجمالها ولكن ظل كسيد دون ما كان يحلم به بكثير فضلاً عما أوجبته حياته عليه من الإنفاق السخى ليظفر بقلوب أعدائه ، وليظفر بالمظهر اللائق به . (١٧٤)

وهكذا سارت الحياة بحسن إما باختياره أو بحتمية ، هكذا عاش بين الرضى والرفض ، كان أملاً فى الماضى أن يحققه وعندما بلغه وجده أقسى مما تصور ، وأيقن بعد فوات الأوان إنه لا مفر عن هذا الطريق وعن خاتمته ... ويعلنها حسن صريحة وواضحة لأخيه حسنين ... ويقدم له بطاقة تعريفه بشكل واضح ...

سأكون معك صريحاً إلى أبعد حد ، وإذا كنت تسأل نفسك حقاً عن عملى فإنى أقول لك إنى فتوة قهوة بدرب طياب (ثم مشيراً إلى الصورة فوق رأسه) وعشيق هذه المرأة ، وبائع مخدرات . (٢٨٧)

فى مجموعته شهر العسل نلتقى بشخصية التابع (فتوة القهوة) هذا الشاب الذى ترك الدراسة ومنزل أبيه ليعيش فى العالم الآخر .. عالم الفتوة والنساء والخمر والمخدرات .. ونكاد نلمس نفس الخطوط بين شخصية حسن فى بداية ونهاية وشخصية الشاب فى العالم الآخر (فى شهر العسل) كلاهما

يعتمد فى الأساس على القوة وقهر المعتدى على المكان ، ولابد من الانتصار ، ولحظة القتال لحظة فاصلة فى مصير الفتوة ، إنها لحظة (اما .. أو ..) ، إما أن يصرع خصمه ويتوج هو الفتوة والحامى للمكان ، وإما أن يقهر أو يموت أو يرحل وكلها بمثابة موت . نمط من الشخصيات المرتبط بالقهوة لم يعد موجوداً أو ندر أن يوجد ولكنه وجد وساد فى الماضى ، ونجيب محفوظ يرصدها ويحللها بتفاصيلها وهنا تكون رواياته بمثابة قراءة تاريخية واجتماعية لزمن مضى من عمر المجتمع المصرى ..

جميع المقاعد خالية فى تلك الساعة من الأصيل عدا مقعدين أمام القهوة، احتلت المعلمة أحدهما وجلس على الآخر تابع شاب لها .

قالت المعلمة لتابعها الشاب : حياتنا خنوع واستسلام ودفع اتاوات ، حتى متى ؟

فقال التابع ، وهو متين البنيان فى العشرين من عمره : حتى تتهيأ الفرصة للقضاء عليه !

- الصبر طيب يا معلمة (٣٠)

قالت المعلمة : الليلة موسم، .. همتك ، فتح عينك ، خد بالك من النسوان .

- اطمئنى يا معلمة ، ولكن الرجل المرعب سيمر آخر الليل ليأخذ الإتاوة .. ثم وهو يشير ناحية الفتاة التى ترقص داخل القهوة : وليجر وراءه أجمل بنت عندنا !

وقام التابع فدخل القهوة . أشار إلى الجوقة فكفت عن العزف . أخذ الراقصة من ذراعها وانتحى بها جانباً بعيداً عن الأنظار . وفى تلك اللحظة ظهر فى مدخل الدرب شاب يافع ينم منظره على أنه طالب .. حيا المعلمة .. ثم سألها بأدب : أين صاحب القهوة ! (٣١)

- محسوبتك صاحبة القهوة

– تعلمين حضرتك أن غداً هو الذكرى الأسيفة لمرور عام على إلغاء دستور الأمة ؟

فقالت وهى ما زالت تتفحصه بذهول : حضرتى لم تعلم .

- الوطن يطالبنا ... فقاطعته : ما الذى جاء بك إلى هذا الدرب ؟
- ماذا تريد ؟ (٣٣)

.....

أجالت المعلمة عينيها بين النساء القابعات أمام البيوت وصاحت بهن: اهتفن معى .. يحيا الإضراب .. وهتف أكثر من صوت : يحيا الإضراب .

ثم ضج الدرب بالضحك . وإذا بالتابع يرجع على صوت الهتاف . ولما رأى الشاب ارتسمت الدهشة فى أساريره . وتنبه الشاب إليه فبادله دهشة بدهشة . هرول كل منهما نحو صاحبه وتعانقا بحرارة وقال الشاب : لا أصدق عينى .. فقال التابع : ماذا جاء بك إلى هنا ؟

وعند ذاك سألته المعلمة : تعرفه ؟

- جار العمر ، وزميل من أيام المدرسة .. فقالت ساخرة : بسلامته يطالبنا بالإضراب (٣٥)

فضحك التابع وقال : والله زمان ! فكرتنا بالذى مضى ! وجذبه من ذراعه فجلس وأجلسه على كرسى جنبه . وهنا قالت المعلمة وهى تقول للتابع :

- أنا ذاهبة ، فتح عينك .. (٣٦)

.....

- من يتصور أنك ابن أبيك الرجل الطيب !

فبصق بازدراء وقال : اللعنة على الجميع !

ثم قال التابع بنبرة خلت من المزاح أو السخرية لأول مرة : إنى أكره العالم الذى جئت منه ، هجرته بلا أسف عليه ، وإذا ذكرته فإنما أذكر عنف أبى وغبائه ، وسجن المدرسة الرهيب ، وهراوات الشرطة ، وما أن اهتديت إلى هذا المكان حتى أدركت أننى ولجت أبواب الجنة !

- الجنة ! .. أى جنة ؟!

- هنا يتقرر مصيرك بقوة راسك ، ويتحدد مركزك المالى بجرأتك ، وتقرر سعادتك بطاقة حيويتك لا زيف على الإطلاق ، اعتبرنى الآن رئيس وزراء يعترض طريقه رجل خطير فإذا تغلبت عليه يوماً ما توجت ملكاً ! .. (٤٢)

.....

وغادرت المعلمة القهوة . هرع التابع إليها فقالت له : إنى ذاهبة مرة أخرى ، سأوفق بإذن الله ، انتبه ، وإذا مر قبل أن أرجع فتصرف بحكمة ، إياك والتهور وإلا هدمت الدرب فوق رءوسنا !

ومالت الراقصة بغتة نحو الشاب فقبلت خده . ضحك التابع وقال : قم .. لا تؤجل عمل اليوم إلى غد ، فإن يوم الدستور غد ! (٤٣)

للفتوة منطق خاص .. هو يؤمن بالقوة والتسلط ولكن من أجل الصالح العام ، من أجل صالح القهوة ومن فيها عندما يتهدد الخطر منطقة نفوذه هنا وجب عليه أن يستخدم القوة والبطش .. وفى حوار التابع مع صديقه الشاب الطالب يقوم بالمقارنة بين حياته التى يعيشها فى عالم الفتوات والنساء والخمر والتى يعتبرها جنة بكل المقاييس وبين حياته التى يعيشها وسط السياسة والدستور والإنجليز ..

إن أى ضعف يعترينا هنا إنما يعنى هلاكنا !

- مهما يكن من أمره فهو أفضل من العالم الآخر ..
- حقاً ! .. أنسيت ؟ .. أليس الطاغية يحكمكم ؟ والشرطة تجلدكم؟، والجيش يحصدكم ، والإنجليز يتربعون فوق رؤوسكم ؟ لا أحد يحكمنى هنا ، وأنا لا استعمل القوة إلا دفاعاً عن الصالح العام .

فقال الشاب وهو يلوح بيده فى أسى : وجئت بغبائى لأطالبكم بالإضراب غداً !

- دستورنا هنا لم يلغ ولا يمكن أن يلغى ، إنه دستور أبدى ، وهو يقضى بأن نعمل لا أن نضرب ، أن نعمل لا أن نبكى موتانا ، ووراء هذه الجدران المتداعية نقدم لأمثالك السعادة التى يحلمون بها . (٤٦)

منطق الطغيان عند التابع :

لكل مهنة منطقها الخاص بها ، ومن ثم فلكل فريق من البشر قيمه الخاصة التى يؤمن بها ويقدسها ويجلها .. وهذا ما تعلمه الطالب الشاب من التابع الفتوة ..

وفجأة ظهر قزم وهو يصفر ثم صاح : (إبليس) . وفى الحال انفجرت فى الدرب حركة شاملة. هرعت النساء إلى داخل البيوت وأغلقن الأبواب. قبض التابع على ذراع الشاب واندفع به إلى داخل القهوة وأغلق بابها . فى ثوان خلا الدرب تماماً وشمله الموت ....

ورويداً رويداً أخذت الأبواب تفتح والحركة تدب .. وقال التابع بهدوء :

-مناورة ، ما هى إلا مناورة ، وعندما سيعود سيجد الإتاوة جاهزة !

-إنه يناور ونحن نناور ! ... ثق من أننى سأضربه ذات يوم !

-وتصبح عند ذاك الطاغية !

-لقد نالها عن جدارة وسأنالها عن جدارة أما فى العالم الآخر فالطاغية يطغى استناداً إلى قوة أسياده . (٤٧)

عالم تموت فيه الإنسانية :

كل شىء مباح .. وكل شىء له منطقه الخاص .. ولكن أن تموت الإنسانية فى القلوب ، هنا يكون الرعب مجسداً .. فى عالم الفتونة والدعارة والمخدرات لا مكان للإنسانية ولا للمشاعر الإنسانية وإلا ذهب الجميع إلى الجحيم ..

عادت الراقصة إلى مجلسها وهى تقول مخاطبة الشاب : خيبت ظنى !

فقال لها التابع بخشونة : الفضل لدموعك الحارة .. وقال لها التابع : استعدى للرقص .

فقالت بإشفاق : إنى متعبة .

فضحك ضحكة عالية وقال : متعبة فى ليلة الموسم !

- إلىّ بكأس كونياك ..

ورجع التابع يحمل كأسين فى يديه ويدندن ، ولكنه قرأ فى صفحة وجهها شيئاً جديداً . قدم لها كأساً ولكنها أطاحت به ضجرة فوقع على البلاط وتحطم مختلطاً بسائله . وتأوهت بعمق طارحة رأسها على مسند الكرسى . وصادف ذلك قدوم المعلمة فنظرت إليها عابسة وتساءلت : مالها ؟ فقال التابع وهو لا يحول عن الراقصة عينيه : أزمة كالعادة ! (٥٠)

وقال الشاب للمعلمة : يجب استدعاء طبيب !

فصاحت المعلمة بحنق : انتهينا من الدستور وسندخل فى الطب .

عكف التابع يربت على وجهها ويدلك خديها وصدرها . قرب وجهه من فيها . جس نبضها ورفع وجهاً جامداً ذاهلاً ، منهزماً لأول مرة وتمتم : ماتت ! ماتت !

فندت عن المعلمة صيحة خافتة يائسة وقالت : أنت أعمى ...

فأعاد الكرة ثم قال ببرود : ماتت يا معلمة !

وهتف الشاب : خطأ ، يجب استدعاء الإسعاف .

فقال التابع بوحشية : اصمت ، لقد ماتت . (٥١)

فهتفت المعلمة : فى ليلة الموسم ! .. يا له من حظ أسود من الليل .

ولكن ما العمل الآن ؟

فقالت المعلمة : فلنحملها إلى حجرتها أولاً .

وتعاون الثلاثة على حملها ومضوا بها إلى البيت . وتساءلت امرأة : ما لها يا معلمة ؟

فأجابت المرأة بلا تردد : مسطولة . (٥٢)

ورجعت المعلمة وتابعها والشاب فجلسوا حول الخوان المعدنى فى وجوم بادئ الأمر ، ولكن المعلمة سرعان ما قالت : ابسطوا وجوهكم كما يجدر بأناس يستقبلون موسماً .

ثم بنبرة متشددة منذرة : لا يجوز بحال أن يفطن أحد إلى سر الحجرة المغلقة .. وإذا سأل سائل عنها فهى مشغولة بزبون !

وتنهدت بحنق وواصلت حديثها : لو عرف أن الموت قابع بالبيت لما طرقه طارق حتى القيامة! فقال الشاب غاضباً: ولكنه تصرف أبعد ما يكون عن الإنسانية.

فقالت المعلمة مخاطبة التابع ودون مبالاة باحتجاج الشاب : تكفل بصديقك ، أنت مسئول عنه ، ولا جدوى من تصرف إنسانى يقضى علينا بالخراب العاجل ، سيجئ دورنا يوماً ما ولن تبكينا عين ، سنشيع باللعنات حتى من زبائننا ، الليلة موسم ، فلتمض بالبهجة والحبور ! (٥٣)

فقال التابع : لا تخشى من جانب صديقى .

فقال الشاب : ولكنه وضع لا يقبله عقل .

فقالت المعلمة : لم يحدث شيء غير طبيعي ، وليس في قدرتنا أن نرد الأرواح إلى أجسادها .

-ولكن شتان بين القسوة والرحمة !

فقال التابع : ليس إلا أننا نؤجل إعلان وفاة !

-ولكن للموت احترامه !

فهتفت المعلمة بنفاذ صبر : احترام الموت بعد الدستور والطب !

قالت المعلمة للشاب : لا تطالبنا بالتفريط في الحياة باسم احترام الموت .. (٥٤)

قال التابع بوجوم : لا تبالغ يا عزيزي ..

- جثة ملقاة في الداخل والعربدة دائرة في الخارج !

.....

- يا لكم من وحوش ! .... يا لها من شابة تعيسة !
- فقال التابع ملاطفاً : كانت مريضة بالقلب .
- فقال الشاب منفعلاً : إني احتقر برودك .
- فقال ضاحكاً : إني احتقر حرارتك ! (٥٦)

التابع وحتمية المعركة وتحديد المصير :

في هذا العالم .. المعارك أمر حتمي وضروري ومن خلال تلك المعارك تنحدر مصائر فتوة ، واحد يقتل وآخر يتوج ، أعمال تنتهي وأعمال تبدأ ومناطق النفوذ تتغير فكل شيء تفرزه القوة وقانونها وهذا هو الدستور المحترم في هذا العالم ..

وظهر القزم وهو يصيح (إبليس) ... ولما وصل إلى القهوة قامت المعلمة وتابعها لاستقباله ، قالت بأدب لأول مرة : تحية لسيد الرجال ... وضعت صرة في يده وهي تقول : بفضل الله وبفضلك ..

-وأين البنت ؟ مع زبون !

-أرسلي في طلبها ... سأنتظر في القهوة ساعة واحدة .. (٥٧)

-سأل الشاب الطالب .. صديقه التابع الفتوة :

ماذا تتوقع أن يحدث فى ختام الساعة ؟ .. سيقتحم البيت محطماً من يعترضه .

–ولكنه لن يجد سوى جثة .

–وعند ذاك يتقرر خراب البيت .

–وما دورك أنت فى هذا كله ؟ .. لا أستطيع أن أدعه يمر دون مقاومة !

–أتفكر فى اعتراض سبيله ؟ .. هذا هو عملى .

–عملك ؟ أنا حامى منطقة المعلمة !

–ولكنه .. ولكنه سيقضى عليك ...

–ربما !

–إنه مؤكد فلا تخاطر بحياتك ...

–هو عملى كما قلت لك .

–تجاهله .

–افقد عملى وكرامتى .

–يمكن أن تتسلل بطريقة ما إلى الشرطة ..

–فقال ضاحكاً : افقد كرامتى مرتين .

–لا أفهمك . ..

–هى تقاليد عملى .. (٥٨)

.....

ومضى نحو القهوة فى هدوء وثبات . وجعل يقترب من الفتوة باسماً حتى وقف بين يديه . وبغتة استل من صدره خنجراً ودفنه فى قلب الوحش . اتنتر الفتوة قائماً جاحظ العينين . ترنح جسمه الضخم ودار حول نفسه ثم تهاوى كجدار تهدم . وفى الحال أفاق الوحوش من ذهولهم . زلزلت القهوة بحركة جائحة ، انتصبت أجسام ، استلت خناجر ، ارتفعت نبابيت ... ومضى وقت غير قصير فى الظلام .. ولما أشعلت المصابيح من جديد تبدى الدرب فى منظر مختلف . عند مدخل القهوة انطرحت ثلاث جثث للفتوة والتابع والراقصة ! .. وطوق المكان قوة من الشرطة ... (٦١)

obeikandi.com

مشروبات وتسالى القهاوى :

فى المقاهى مشاريب وألعاب للتسلية ، والمشاريب فى القهاوى متنوعة وكذلك تتنوع وسائل التسلية ، ولرواد المقاهى طبائع خاصة فى حب المشاريب وتفضيل وسائل التسلية ، ومن الممكن أن تجد مقهى تشتهر بنوع معين من المشاريب كالقهوة مثلاً أو الشاى أو السحلب ... الخ .

رواد القهوة يشربون :

قد تذهب إلى القهوة لتشرب أحد المشاريب التى تحبها كالقهوة أو الشاى أو الحلبة ... الخ . وقد تذهب إليها للالتقاء بالأصدقاء أو الهروب من الوحدة أو للإنفراد بذاتك وتأمل الجميع من حولك ، وفى كل الحالات يقدم لك القهوجى أحد المشروبات . وشرب المشاريب أو طلب أحد وسائل التسلية أمور حتمية ، فمن المحتم إذا ذهبت للقهوة أن تطلب أحد الطلبات إذن المشاريب فى القهاوى أمر حتمى طالما دخلتها وجلست بها ..

فى السمان والخريف :

عيسى الدباغ .. تذكر البوديجا قهوته المختارة فمضى إليها .. فراح يحتسى الشاى وحيداً . (٥٢) وفى جروبى جلس إلى عبد الحليم باشا شكرى .. وراح عيسى يحتسى الشاى وهو يرمق الوجوه الرائعة بحسن التغذية . (٦٧)

فى بداية ونهاية :

فى قهوة الجمال .. ولم يوجد فى هذه الساعة المبكرة إلا زبونان جلسا على مائدة على الطوار يتشمسان ويحتسيان القهوة (٤٠)

فى دنيا الله (مجموعة) :

مال إلى قهوة عند رأس الطريق وجلس واحتسى الشاى .. (٩٢)

فى بين القصرين :

كنت راجعاً من بعض الأعمال ، فنازعتنى النفس إلى احتساء شايك العذب (٩٧)

أحمد عبد الجواد .. نادى صبى قهوة قلاوون ليحضر قهوة (٣٣٣)

obeikandl.com

فى السكرية :

فى قهوة أحمد عبده .. وصب كمال الشاى الأخضر فى قدح صاحبه ثم فى قدحه (٥٧)

فى قهوة خان الخليلى .. جلس الأصدقاء فى جناح الشرفة الأيمن يحتسون الشاى (٢٨١)

فى همس الجنون (مجموعة) :

فكان يلاحق أصحابه فى قهاوى الخرنفش ومرجوش والغورية ويساهرهم الليل يشربون الزنجبيل والقرفة (٢٦٤) ... يحتسون الشاى والزنجبيل (٢٨٩)

فى يوم قتل الزعيم :

مقهى ريش منقذ من ضجر الوحدة . أجلس وأطلب القهوة . (٤٦) وإلى جانب تلك المشروبات المعتادة من الرواد إلا أن القهوة تقدم أيضاً المشروبات الكحولية وجدنا ذلك فى :

فى الشيطان يعظ :

وفى المقهى كنت تشرب الوسكى ؟

- بضع كئوس . (١٥٣)

فى الطريق :

دخل أول قهوة صادفته فجلس إلى البار ثم طلب براندى . (٣٧)

التدخين فى القهاوى :

يتلذذ رواد القهاوى بالتدخين فتجدهم يطلبون الشيشة والجوزة والنارجيله .. وفى أحيان أخرى نجد تدخين الحشيش ..

فى السمان والخريف :

وجد فيها أصدق مثال للامبالاة التى تلقت بها الدنيا كارثته فتحول عنها وعن الغارقين فى دخان النارجيلة (٥٢)

وراح عباس صديق يقرقر فى النارجيله وينفث الدخان كعضو فى أوركستر المدخنين بالقهوة (٦٤)

obeikandl.com

فى قشتمر :

أصبحنا من معالم المقهى .. ووقعنا فى هوى النارجيله وثملنا بنشوة الدخان (٥٧)

فى المرايا :

وعلمنا ونحن فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية – تدخين الجوزة والبورى والنارجيله ولعب النرد والدومينو (١٣١)

فى دنيا الله (مجموعة) :

مال إلى قهوة .. احتسى الشاى ودخن أكثر من جوزة وأكل عدد من قطع اللحم . (٩٢)

فى قشتمر :

وما علينا إلا أن نختار ركناً منزوياً للسمر ولعب الطاولة . وشرب الشاى والقرفة والقازوزة . (٢٨)

فى السكرية :

جلس الأصدقاء فى جناح الشرفة الأيمن يحتسون الشاى ويدخنون النارجيله بالمناوبة . (٢٨١)

فى همس الجنون :

ويدخنون الجوزة ويتسامرون ويتضاحكون (٢٦٤)

فى القرار الأخير :

وسطعت من مقاهيه روائح غريبة نافذة ومؤثرة ، وتراءى الجالسون وكأنهم لا يسمعون ولا يرون ولا يشغلهم شاغل أو يربطهم بالحياة رابط (٢١) .

وسائل التسلية فى القهوة :

كما تتعدد المشاريب فى القهوة تتعدد كذلك وسائل التسلية وقد تكون وسيلة التسلية مقترنة بالمشاريب .

فى همس الجنون :

ويلعبون النرد ويحتسون الشاى والزنجبيل (٢٨٩)

obeikandl.com

فى خان الخليلى :

ودق قطع النرد والدومينو وأصوات اللاعبين (٢٦)

سأله المعلم نونو : ألا تحب أن تتسلى بلعب شىء ؟

فنظر إليه كمن تنبه من سبات بغتة وقال ببساطة : لا أدرى عن الألعاب شيئا ! فضحك كمال خليل قائلاً : إليك الأستاذ راشد قريباً وشبيهاً فى ذلك فتسامرا معاً ريثما نلعب ساعة .. وانقسمت الجماعة فريقين : فلعب المعلم نونو وكمال خليل الدومينو ، ولعب سليمان عته وسيد عارف النرد . (٥٤)

فى قشتمر :

أجل فقد مات بالسكتة القلبية وهو يلعب الطاولة فى مقهى عبده . (٧٤)

فى بداية ونهاية :

فلم يكن عجباً أن يقصدهم الشاب وينضم إلى مجلسهم . وما لبث أن طلب أحدهم الورق فتهيئوا للعب الكومى . (٤٠)

فى السمان والخريف :

ووجد جماعة تلعب النرد وتتحمس حتى الجنون لما تجئ به الزهر . (٥٢)

فى المرايا :

وعلمنا ونحن فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية .. تدخين الجوزة والبورى والنارجيله ولعب النرد والدومينو (١٣١) .

فى القرار الأخير :

هل تذكرون ؟ نظرنا نحوه .. فابتسم مواصلاً .. ليلة الشطرنج فىمقهى إيزيس . (٦٩)

المقهى فى مكانه .. وأعدت كراسيه صفوفاً لتشاهد مباراة كرة القدم فى التليفزيون . (١٢٦)

فى صباح الورد :

هل أطلب النرد ؟ فقلت دون حماس أمامنا وقت طويل . (١٠٢)

فى زقاق المدق :

واكب سمار القهوة على الدومينو والكومى . (١٤)

openkandil.com

فى بداية ونهاية :

يمضى ساعتين على الأقل مع نفر من الموظفين يلعبون النرد ويسمرون حيناً آخر (٢٩٦)

من وسائل التسلية نجد كلا من الربابة وشاعرها ، والراديو ، ثم دخل التليفزيون ثم الدش الآن ..

فى دنيا الله :

واسترجع أخيلة القصص التى كان يرويها الرباب فى قهوة خان جعفر منذ ربع قرن أو يزيد . (٨٢)

فى حكايات حارتنا :

لبث – عبدون – فى الدكان يعمل بهمة ، وتزوج ، وواظب على السهر فى المقهى يتلقى الحكايات على أنغام الرباب . (١٣٢)

فى القرار الأخير :

لكن لم يعثر على وجه واحد من الوجوه القديمة .. المقهى فى مكانه ، ولكنه يديره شاب ببنطلون وقميص ، وأعدت كراسيه صفوفاً لتشاهد مباراة كرة قدم فى التليفزيون ، لا يعرف أحداً ولا أحد يعرفه . (١٢٦)

فى زقاق المدق :

تناول الربابة يجرب أوتارها ، .... وراح يعزف مطلعاً ، لبثت قهوة كرشه تسمعه كل مساء عشرين عاماً أو يزيد من حياتها ، وأخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة ، ثم تنحنح وبصق وبسمل ، ثم صاح بصوته الغليظ :

أول ما نبتدى اليوم نصلى على النبى . نبى عربى صفوة ولد عدنان..(٨)

القهوة والمخدرات والخمر :

يحلو للكثيرين إدمان المخدرات والخمور على المقهى ، أو فى القهوة تنزلق أقدامهم إلى هذه الأمور .. وفى فترة من الزمن الماضى كانت المخدرات والخمور من الأمور العادية على القهاوى .. وهذا ما يرصده نجيب محفوظ

فى المرايا :

سيد شعير .. كان صديقاً لصاحب مقهى فى مرجوش يعمل فى الوقت نفسه تاجر مخدرات بالجملة فعرض عليه أن يشتغل موزعاً بالنسبة وسرعان ما قبل . وأخبرنا بذلك فى مباهاة طفولية فذعرنا .. وانضم بقدرة قادر إلى زمرة رجال الأعمال فافتتح مقهى فى وجه البركة امتاز بالأناقة والخمور الرخيصة وعازف أرغول يشنف آذان السكارى ومدمنى المخدرات من الزبائن . وكان يديره بحزم الفتوات وابتسامة التجار المحترفين ، مرتدياً بدلة كالأفندية إشارة إلى أصله العريق المختلف عن أصول أصحاب المقاهى من أهل البلد البرمجية .. (١٣٢)

شعراوى الفحام .. وتمكن منه إدمان الخمر فكان يشرب كل ليلة ، يشرب

أرخص الخمر وأردأها التى تتناسب مع دخله . ويمكن تخيل ما أحدثه ذلك فى أمه من قلق وأسى . وهو نفسه قال لنا ذات ليلة ونحن نسمر فى مقهى سيد شعير بوجه البركة أمى لا تريح ولا تستريح ، تريد أن تخلق لى عملاً ولكن أى عمل ؟ وتريد أن تزوجنى ولكن أى زوجة ؟

فقال له عيد منصور: دخلك الثابت عشرة جنيهات وهو دخل طيب لو قنعت بسكرة واحدة فى الأسبوع وما عليك إلا أن تبحث عن زوجة ذات إيراد ..

فضحك كالعادة وقال : إنى انتظر الفرج وهو آت عما قريب ! (١٤٧)

.....

وأقبل علينا فى مقهى الفيشاوى سكران كالعادة محمر العينين ذاهل الطرف ، نظر فى وجوهنا ملياً ، ثم أغرق فى الضحك ! وخلع حذاءه فوثب إلى أريكة فى صدر المقصورة فتربع عليها وراح يغنى : البخت لو مال حتعمل أيه بشطارتك .

وأغرق فى الضحك مرة أخرى حتى أعدانا فضحكنا كالمجانين.(١٤٩)

عدلى بركات .. كان قابعاً فى الفيشاوى ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ عندما جاءه رسول من شقيقه ينعى إليه والده ويدعوه إلى القصر . كان مسطولاً فلم يفهم من المرة الأولى . ولما أخذت الحقيقة تلاطمه وتوقظه وقف مترنحاً ، فحملق فى

جدران المطعم الأرابيسك ، وسرح فى غيابات لا يدر بها أحد ثم غادر المكان دون أن يلقى تحية وراءه .. (٢٢٣)

عصام الحملاوى .. زوجته أرستقراطية جميلة .. أقامت علاقة مع محمد الكواء .. ثم بينها وبين القصاب .. حتى قال جعفر خليل ضاحكاً : الوليه أرستقراطية ولكنها ذات ميول شعبية !

وفى أواخر أيام الحرب باعت البيت وغادرت الحى . ولكنها لم تغب عن ناظرى طويلاً ، إذ كانت ترى جالسة فى مقهى اللواء أو جروبى أو الأرجنتين ، تشرب كأساً ، ثم تمضى وقد اصطادت شاباً .. (٢٤٣)

فى قشتمر :

واقتصر مجلسنا على خمستنا ، اصبحنا من معالم المقهى . وفى العطلة الصيفية لا نتخلف عنه ليلة واحدة . ووقعنا فى هوى النارجيله وثملنا بنشوة الدخان

.وزودنا عشاءنا بالخمر أحياناً ، بل عرف حماده لف سيجارة الحشيش . وظل قشتمر أحب الأماكن إلينا بما هو المأوى الذى نخلو فيه إلى أنفسنا ونتبادل عواطف المودة . (٥٧)

فى القرار الأخير :

وسطعت من مقاهيه روائح غريبة نافذة ومؤثرة ، وتراءى الجالسون كأنهم لا يسمعون ولا يرون ولا يشغلهم شاغل أو يربطهم بالحياة رابط .. (٢١)

فى زقاق المدق :

المعلم كرشه : لم يترك الحشيش من إرادته نفعاً . ومع ذلك كان على خلاف الأكثرية من تجار هذا الصنف فى حكم الفقراء ، لا لأن تجارته غير نافقة ، ولكن كأنه كان مبذراً ... فى غير بيته يبعثر ما يربحه ، وينثر المال بلا حساب ، جارياً وراء شهواته .. (٤٦)

وظل سنقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات فى الصندوق ، والمعلم (كرشه) يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر فى خمول ذوبان الفص فى جوفه ويستنيم إلى سلطنة لذيذة . (١٤)

فى خان الخليلى :

انظر إلى القهوجى (المعلم زفته) .. انظر إلى عينيه الزاهلتين . إنه يزدرد نصف درهم من الأفيون كل أربع ساعات ويمضى فى عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب أن يفيق . (٥٥)

قال المعلم زفته القهوجى وهو لا يمسك عن العمل :

– ابشركم يا إخوان بأن هتلر – حين يفتح الله له مصر – سيلغى أمر منع الحشيش ويمنع شرب الويسكى الإنجليزى !

فقال المعلم نونو : هتلر رجل حكيم ولا يداخلنى شك أن الفضل الأول فى مهارة خططه راجع للحشيش ! فسأله كمال خليل أفندى : وكيف أوصله إليه عباس شقة ؟

فقال نونو بلهجة جدية : لا حاجة به إلى عباس شفه ، فالمخزن رقم ١٣ ملآن بالحشيش النقى ! (١٧٩) .

ثم هز المعلم رأسه كالآسف وقال بحسرة ظاهرة : ألم تسمعوا بما يقال من أن اليابانيين ينشرون المخدرات بين الأمم التى يغزونها !

فقال المعلم زفته بنفس اللهجة : ليت الإنجليز كانوا حشاشين !

– ضاعت خمسون عاماً من الاحتلال هدراً ! (١٨٠)

فى بداية ونهاية :

فى قهوة الجمال يلتقى حسن بالأستاذ على صبرى ويتفق معه الأستاذ على صبرى على العمل معاً فى القهوة التى يفتتحها ويوافق حسن على الاتفاق أن يعمل فتوة وسنيد وتاجر مخدرات أيضاً ..

... إنك شاب قوى وجرئ وينبغى أن تستغل مواهبك إلى أقصى حد . ولكن دعنى أسألك سؤالاً قبل كل شىء : أى المخدرات أحب إليك ؟

.....

فقال بمكر : أظن المخدرات تؤذى الحنجرة ..

فضحك على صبرى ، ثم انطلق يغنى من الليالى ما شاء فى صوت كالرعد وفى نفس طويل قوى ثم تساءل ما رأيك فى هذا ؟

– لم أسمع له مثيلاً !

فقال ساخراً : هذا نتيجة خمسة عشر عاماً من تعاطى الحشيش والأفيون والمنزول ، منها خمسة أعوام أدمنت فيها الكوكايين .

- يا سلام !
- المخدرات دم الغناء ، وما من مغن يستحق هذا الاسم إلا وقد تعاطى من المخدرات مثلما التهم من الملوخية والفول المدمس .
- فضحك حسن وقال بلهجة تنم عن التسليم : هذا لو تيسرت ..
- صدقت ، وهذا ما خمنته . إنك لا تكره المخدرات ولكنك لا تستطيعها . وإذن فاعلم أنه من اليسير أن نجعل الأنهار خموراً والجبال حشيشاً . إنك جرئ قوى ولكنى لا أخفى عليك بأنى خفت كثيراً ..
- خفت ماذا ؟
- فضحك على صبرى ضحكة قصيرة كشفت عن أسنانه الصفر وقال :
- أكره الناس إلىّ من يقول (أخلاقى لا تسمح لى بكيت وكيت) أو من يقول (اتق الله) أو من يتساءل فى خوف (والبوليس ؟!) فهل أنت أحد هؤلاء ؟
- فقال حسن مبتسماً وهو يشعر بأن صبره الطويل يوشك أن يظفر بحسن الجزاء:
- إنى أعيش فى هذه الدنيا على افتراض أنه لا يوجد بها أخلاق ولا رب ولا بوليس . (١٢٥)
- فضحك على صبرى بقوة زلزلت القهوة كغنائه وقال : فلتقض بقية الليل فى بيتى فما زال فى الحديث بقية .
- .....

وها هو يقصد كلوت بك ، بل درب طياب بالذات حيث ينتظره على صبرى ... وبلغ وسط الدرب ورأى الأستاذ على صبرى جالساً أمام باب القهوة فاتجه إليه وسلم وجلس على كرسى إلى جانبه ... مد الأستاذ ساقيه فبلغتا منتصف الطريق الضيق وقال مشيراً إلى القهوة التى يعدها العمال ...

- إليك قهوة بالنهار ، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان الست زينب الخنفاء – وهى على فكرة شريكتى – وبين ساعة وأخرى أغنى ، مجال العمل واسع ، والرزق مضمون . (١٥٠)
- قال على صبرى باطمئنان : إنى متفائل خيراً . هذا المكان مبارك .
- ثم سمع الأستاذ يقول : ولكن عملك كسنيد ثانوى بالقياس إلى ما ينتظر منك :
- وماذا ينتظر منى ؟

ألقى سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقاً بما ينتظر منه ، فقال الأستاذ :

- إنك أدرى الناس بهذه الأحياء ، ففى كل متر مربع بلطجى أو برمجى أو سكير فمن لهؤلاء ؟ .. أنت ! وهناك المخدرات وتجارتها فن هائل يطلب مهارة وقوة وجرأة فمن لها ؟ .. أنت ! وابتسم حسن ابتسامة عريضة مرتسمة على شفتيه طويلاً . وداخله سرور وحماس وفخار . هذه هى الحياة حقاً .. (١٥١)

فى ليالى ألف ليلة :

مقهى الأمراء .. يتوسط المقهى الجانب الأيمن من الشارع التجارى الكبير .. وهو مربع الأركان واسع الساحة ، يفتح مدخله على الطريق العام وتطل نوافذه على حوارى جانبية .. يقدم مشروبات شتى ساخنة وباردة تبعاً للفصول وبه أيضاً أجود صنوف المنزول والحشيش . (١٠)

فى الشيطان يعظ :

وفى المقهى كنت تشرب الوسكى ؟

- بضع كئوس . (١٥٣)

فى الطريق :

دخل أول قهوة صادفته فجلس إلى البار ثم طلب براندى . (٣٧)

القهوة والمهن المختلفة :

عندما تجلس على أى مقهى سوف تجد أسراب من الشحاذين من مختلف الأعمار كل بعاهته التى يصطنعها أو المخلوق بها ، وكل واحد بطريقته

الخاصة ، أيضاً تجد ماسح الأحذية الذى يمر على كل الجالسين مرة تلو المرة ، وإلى جانب ذلك فهناك العديد من المهن مثل بياعى ورق اليانصيب وجامعى أعقاب السجائر أيضاً الدعارة .

أولاً : القهوة والشحاذين :

فى السمان والخريف :

التفت نحو زجاج النافذة فرأى شحاذاً واقفاً وراءه ليرمقهم بنظرة مستعطفة وقد انقطع المطر ... وطرد الشحاذ بإشارة من يده . (٦٥)

فى زقاق المدق :

يقول زيطة صانع العاهات لأحد الأفراد الجدد والذى يريد أن يمتهن التسول ... ليست العاهة بمطلبك . بل أنت فى حاجة إلى مزيد من التحسين والتجميل . اغسل جلبابك جيداً ، واحصل بأية طريقة على طربوش نصف عمر ، وامش بقامتك المعتدلة هذه فى خشوع وأدب ، واقترب فى إشفاق من رواد المقاهى ، ثم قف فى حياء ، ومد يدك فى تألم ودون أن تنبس بكلمة وتكلم بعينيك ، ألا تعرف لغة الأعين ؟ ستحدق فيك العيون بدهشة ، سيقولون عزيز قوم ذل ، ويقولون محال أن يكون هذا من أولئك الشحاذين المحترفين . أفهمت الآن ما أريد ؟ ستربح بوقارك أضعاف ما يربحه الآخرون بعاهاتهم . (١٢٤)

ثانياً : القهوة وماسحى الأحذية :

مهنة ماسح الأحذية من المهن الهامة والمقترنة بالقهوة ، والسبب فى ذلك أن الزبائن كثيرون ويجد صاحب تلك المهنة مبتغاه ... على أن القهاوى ليست مباحة لكل ماسحى الأحذية .. ولكنك ستلاحظ أن كل قهوة لها شخص أو اثنان يتولان مسح أحذية زبائن القهوة . أن تلك المهنة تكاد تتحول إلى وظيفة ، فاقتران ماسح الأحذية بإحدى القهاوى هو من قبيل الوظيفة فى هذا المكان .

واستمرار ماسح الأحذية فى القهوة يتيح له التعرف على الكثير من مرتادى القهوة ، ويصل الأمر أن تكون هناك علاقات قوية بين الزبائن وماسح الأحذية تتمثل فى حب الحديث والانطلاق فى الحديث الودى بينهما.. إنها درجة من درجات الصداقة . نجد ذلك مثلاً فى قصة (أهلاً) ومن أهم ما يميز ماسحى

الأحذية أنهم بمثابة بنك المعلومات ، فإذا أردت أن تعرف بعض المعلومات عن أحد رواد القهوة فاتجه مباشرة لماسح الأحذية .. وفى هذا الصدد نقول أن هناك فئة من البشر يتسموا بقدرتهم على معرفة أكبر قدر من المعلومات عن الناس ، إنها خاصية لدى هؤلاء . فإذا أردت أن تعرف معلومات عن شخص ما فى منطقة ما فإنه يقال لك اذهب إلى الحلاق فى المنطقة أو الكواء أو البوابين . وفى القهاوى توجد المعلومات وتفصيلاتها عند معلم القهوة وتابعه القهوجى وماسح الأحذية .

فى الحب تحت المطر :

انتصف الليل فخلت مقهى الانشراح بشارع قمر من زبائنها . لم يبق من عمالها إلا عم عبده بدران النادل وعشماوى ماسح الأحذية . ومضى عشماوى بهيكله الضخم الخاوى إلى الخارج فجلس القرفصاء جنب مدخل المقهى ينظر إلى لا شىء بعينيه العمشاوين ... (٩)

فى السمان والخريف :

ورأوا ماسح الأحذية يدق صندوقه حيالهم فاختبأوا فى الصمت حتى ذهب . (٦٦)

- عند ماسح الأحذية توجد الحقيقة !!!

سعيد الدباغ فى السمان والخريف كان حائراً قلقاً يود لو يعرف حقيقة الطفلة ابنة ريرى تساءل كثيراً وحار كثيراً ولم يصل لحقيقة الأمر واستسلم مرغماً للحيرة .. إلى أن جاء الأمل والمعرفة من ماسح الأحذية ..

جلس فى قهوة النسر .. ونظر إلى السماء المتوارية وراء ظلمات السحب وقال أن الخريف فى الإسكندرية روح من أرواح الجنة وهو مغسل لجميع الأحزان . وأن جميع الأحزان ما هى إلا أوهام

- ما أجمل أن يسكر بلا خمر ..

وإذا بماسح أحذية يقف أمامه وهو يرمقه بنظرة استجداء . وقرأ فى نظرته أكثر من معنى فأشار إليه أن يجلس ثم سلم إليه قدميه . وأراد أن يتأكد من ظنه على سبيل التسلية فسأله :

- هل توجد شقة خالية ؟

openkanal.com

فابتسم قائلاً : فى هذا الوقت الشقق أكثر من الهم على القلب .

وضحك عيسى فى ارتياح ، وإذا بخاطر يخطر فأشار نحو محل ريرى متسائلاً :

- ماذا عن صاحبة (خذ واشكر) ؟

فتغيرت سحنة الرجل وقال بلهجة جادة : لا ..لا ..هذه ست بمعنى الكلمة. فحدجه بنظرة كأنما تقول له (اطلع !) فقال الرجل : لا تضع وقتك .. أنا لا شأن لى بها ..

- أنت لم تفهمنى فنظرة واحدة إليها تقنع بما تقول . ولها طفلة لطيفة جداً ...

- نعم ، نعمات ، بنت حلال !

فابتسم عيسى متظاهراً بعدم الاكتراث ثم تساءل : ولكن أحداً لا يرى أباها أليست الست متزوجة ؟

- طبعاً .. وزوجها هو صاحب المحل .

- وماله لا يدير محله بنفسه !

- قال الرجل بعد تردد : فى السجن ولا مؤاخذة !

- لأى سبب ؟

- مخدرات ! .. مظلوم والله ....

- ربنا يفرج عنه ولكن أنت متأكد أنه والد الطفلة ؟

فلمعت فى عينيه نظرة حذر وقال : طبعاً !

فقال عيسى بجرأة وثبات : كلا ... ثم وهو يضحك :

- أنت تعرف الحقيقة وتنكرها أو أننى أعرف أكثر منك ...

- ماذا تعرف ؟

- أحب أن اسمع منك وإلا فكيف سنتعامل معاً مادمت تبدأ بالكذب علىّ :

فقال باستسلام وهو يشبع الحذاء بالورنيش :

يقال أنه كتبها باسمه فى شهادة الميلاد الرجل الطيب !

- ولكن لم ؟

obeikandi.com

- عجوز وطيب ولا ولد له وأحب الست وتزوجها على سنة الله ورسوله !

فقال عيسى وهو يزدرد ريقه بصعوبة : رجل طيب حقاً ولا يستحق السجن ..

- ولذلك فهى تعمل مكانه وتنتظره بصبر وإخلاص .
- يستحق ذلك وأكثر .

وأعطاه عشرة قروش ، وأمله خيراً فيما سيأتى من أيام .. (١٧٦)

ماسح الأحذية يتأمل الحياة !!

عند بسطاء الناس توجد حكمة السنين والعمر ! ربما لم يتعلموا ولم يحصلوا العلم فى الكتب، ولكن استطاعوا أن يحصلوا الحكمة من الزمن والسنين وتأمل الأيام والواقع المعاش .. وعند البسطاء من الناس يكون الأمل بسيطاً وقوياً وعميقاً .. وماسح الأحذية عاصر الأحداث وشاهدها وعاناها وتغيرت الأحوال وبقى السؤال فى داخله كيف تتغير الأحوال إلى الأسوأ .. ثورة ضد الإقطاع ورغم ذلك زاد الفقر وفتحوا التعليم للجميع ولكن لا تعليم والنتيجة هزيمة فى الداخل والخارج ويبقى السؤال عند ماسح الأحذية يوجهه للبيك .. أنا أريد النصر والحياة المعقولة ، خبرنى كيف ومتى يتم ذلك ؟

فى الجريمة (فى قصة أهلا) :

دقة أيقظته من شروده ، دقة ماسح الأحذية التقليدية ، رفع عينيه عن النارجيله فرآه واقفاً يرمقه بعين جياد . مضت لحظات وهما يترامقان ثم تهلل وجه الرجل . هو أيضاً ابتسم

- حمداً لله على السلامة يا بيك
- أهلاً .. كيف حالك !

وأشار إليه فقرفص عند قدميه فأعطاه حذاءه . لم يره منذ عشرين عاماً، فقد انقطع عن المقهى القديم . كان فتى يافعاً متين البنيان متدفق الحيوية ، يطوف بأرجاء الحى فى رشاقة النحلة ، يمسح الأحذية ويروى النوادر والملح.. ها هو قد جف عوده وتعضن وجهه وأدركته شيخوخة مبكرة .

- لم أرك منذ عمر طويل يا بيك ؟
- الدنيا .

- سافرت ؟ .. كلا

وكيف هان عليك مكانك المفضل !

- ها أنا أرجع إليه عند أول فراغ .
- هل مرت الأعوام فى عمل متواصل ؟ نعم
- ربنا معك .. (١٦٠)

منذ عشرين عاماً كانا يكافحان عدواً مشتركاً هو الفقر على اختلاف موقعهما منه .

- لم تتغير يا بيك والحمد لله .
- أنت أيضاً لم تتغير !
- والحياة أصبحت شاقة ..
- جداً جداً يا بيك .
- ولكنك مؤمن والإيمان كنز لا يقدر بمال .. الحمد لله ..

قديماً كان العيش يتيسر لك ببضعة قروش حقاً ولكن كان يتسلط على البلد إقطاعيون يبذرون الملايين على ملاذهم ..

- انتهى أمرهم يا بيك ولكن حالى ازداد سوءاً .. (١٦١)

بسطاء الناس فى المجتمع هم الترمومتر الحقيقى الذى من خلاله نرصد التغيرات والتبدلات فى المجتمع .. البسطاء ليسوا منافقين ولا وصوليون ولا انتهازيون ولا متسلقون هم وطنيون شرفاء لا يبحثوا إلا عن عيشة رضية فى ظل حكم عادل..أن يشعر أنه يعيش فى وطنه لا أن يشعر بأنه غريب عنه ومنبوذ فيه...

- تذكر ، لقد رقصت يوم قامت الثورة .
- طبعاً ، سكرت بالآمال ، سكرنا جميعاً بالآمال ..
- ولقد تحققت الآمال ، ولولا سوء الحظ ، لولا الأعداء .. ماذا كنت تتوقع ؟
- زوال الظلم والفقر ، لقمة متوفرة ، مستقبل للأولاد ..
- حصل ذلك كله .
- دائماً نسمع ولكن الأولاد ضاعوا جميعاً ..
- واضح أنك تشكو كثرة العيال ؟

obeikandl.com

- إنى أحمد الله .
- المدارس مفتوحة لاستقبال الجميع. دخلوها وخرجوا كما دخلوا، ولم ينجح أحد.
- وما ذنب الثورة ؟
- لا ذنب لها ، ولكننا نسكن جميعاً فى حجرة واحدة ! وفى المدرسة لا يفهمون شيئاً .. (١٦٣)

.....

- لا تنس أننا فى حال حرب .

أرجع فردة الحذاء وتناول الأخرى ثم قال : وسبق ذلك الهزيمة .

- لا داعى لتذكيرى بما لا يمكن أن ينسى .
- بعد أن نفختنا الآمال حتى طرنا فى الجو .
- متى نحارب يا بيك ؟

فهز منكبيه استهانة : سنحارب عندما نضمن النصر .

- هل تعرف معنى الحرب ؟ .. هل تتصور حالنا إذا خربت المصانع والسدود والمواصلات !
- نفعل بهم مثلما يفعلون بنا
- ستتوقف الحياة هنا .
- ليكن ، المهم أن نحرر أرضنا .
- هل تهمك الأرض حقاً أو أنك تريد الخراب ؟
- أريد أن أحيا فى ظل العدل .
- يبدو أنك تريد أن تهدمها على رءوس من فيها .
- لا والله يا بيك ... يا بيك أنا أريد النصر والحياة المعقولة ، خبرنى كيف ومتى يتم ذلك ؟
- لا أدرى متى ولكنه يتم بالصبر والعمل والإخلاص .

كأنه أصم ، يرفض التصديق والاقتناع ، وقد أنجز عمله ، أعطاه خمسة قروش بدلاً من قرشين ، تهلل وجهه ودعا له بالستر ، واعترف فيما بينه وبين

نفسه بأنه فى حاجة ماسة لذلك الدعاء ، وبأنه يشاركه حيرته فضلاً عن المخاوف التى ينفرد بها وحده ، ورآه يهم بالذهاب فسأله :

- ما رأيك فيما قلت ؟

ابتسم مدارياً شكوكه وتمتم : كلام جميل

- وحقيقى أليس كذلك ؟
- مثل كلام الراديو . (١٦٥)

شعر بأنه يذكره بكلام الراديو طيلة عشرين عاماً ، شعر بأنه يوبخه فأوشك على الانفعال .

.....

ضحك ضحكة فاترة مغتصبة ، وسأله الرجل : هل ترجع إلى المقهى كالأيام الخالية ؟

- إن شاء الله كلما سنحت فرصة ..
- عندما رأيتك فرحت ورجعت فجأة إلى الشباب .

ثم حياه وانصرف .

وصفق يطلب وقوداً للنارجيله الخابية ... (١٦٦)

وكما أشرنا .. عند البسطاء توجد القناعة ويوجد الأمل والإيمان بالوطن وقيادته رغم كل شىء !!!

فى الكرنك :

" لفت نظرى بصفة خاصة إمام الفوال الجرسون وجمعه ماسح الأحذية، يتغنيان بعنتر وفتوحاته ، يعانيان مرارة العيش ولكنهما يتغنيان بعنتر وفتوحاته ، كأن الفقر قد هان عليهما من أجل النصر والكرامة والأمل . (١١)

ويوم الهزيمة التى واجهتها مصر فى عام ١٩٦٧ يرفض مساح الأحذية الهزيمة ويعيش على أمل النصر ..

فى الكرنك أيضاً .. وكان أشدنا مناعة حيال الوباء إمام الفوال الجرسون وجمعه مساح الأحذية ، فهما يرفضان الهزيمة ويصدقان الراديو ويحلمان بيوم النصر . (٤٣)

obeikandi.com

ثالثاً : القهوة والدعارة :

ارتبطت مهنة الدعارة وفتيات الليل بالقهوة حيث يوجد الزبائن بوفرة ، وعلى طالب المتعة أن يذهب للقهوة فيجد ما يريد أو يطلب من القهوجى ، عند صاحب القهوة وتابعه كل ما تريد المهم هو متعة الزبائن طالما المال موجود ..

فى السمان والخريف :

(ريرى) .. من أين أنت آتية فى هذه الساعة ؟

فأشارت إلى الوراء بميل قائلة : من القهوة .

لاحت القهوة لعينيه بابا مضاء يكتنفه الظلام والصمت فقال : لم أرها فى سيرى !

- يراها عادة من يقصدها (٩٠)

.....

أين كنت تعيشين :

فقالت بهوان : عند صاحبة القهوة أحياناً ، وأحياناً أبيت فى القهوة.(٩٣)

فى اللص والكلاب :

(نور) .. وعادا معاً متجهين نحو أريكة المعلم . وعندما مرا بباب القهوة لمعلت فى الخارج ضحكة أنثوية فضحك المعلم طرزان وقال : نور ، ألا تذكرها ؟

نظر سعيد إلى الظلام خارج الباب فلم ير شيئاً وتساءل : أما زالت تجئ إلى هنا ؟

- من حين لآخر . ستفرح لرؤيتك .
- صايدة ؟
- طبعاً ، ولد ابن صاحب مصنع حلوى ..

obeikandl.com

ولما جلسا على الأريكة نادى المعلم صبيه وقال له : بصنعة لطافة قل لنور أن تأتى ..

وظهرت نور عند الباب غير متوقعة للمفاجأة التى تنتظرها . فلما رأته توقفت على بعد خطوات فى ذهول . ونظر إليها باسماً وفى إمعان . بدت أنحل مما كانت واختفى وجهها تماماً تحت المساحيق الدسمة . ونطق بالإغراء فستان أبيض انطلقت منه الأذرع والسيقان بلا حرج وقد شد حول جسدها كالمطاط حتى صرخ التهتك ، وعربد شعر رأسها القصير فى تيار الهواء . (٤٩)

فى شهر العسل (مجموعة) :

رقصت الفتاة على عزف جوقة صغيرة فى القهوة الوحيدة بالدرب..(٣٠)

قال الشاب للتابع : أتقيم هنا ؟ نعم

وهؤلاء النسوة ؟ لطيفات وطوع الأمر

- مظهرهن فاقع مبتذل .
- بدأت تفهم .

.....

- فتاة جميلة !
- حقاً ؟
- ولكنها ترقص فى قهوة خالية !
- مجرد تمرين فالسهرة لم تبدأ بعد . (٣٧)
- .... صديقى معجب بك !
- قال التابع للشاب بتحريض : أثبت رجولتك . (٣٨)

وبادره قائلاً : أن كنت تحبها حقاً فهى لك !

-- النظرة والحب والتنفيذ تحدث فى دربنا فى ساعة واحدة ! (٤٠)

ضحك التابع وقال : قم .. لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد ... (٤٣)

obeikandl.com

..ولكن أحب أن أخبرك أن الانسان يتحايل على المعاناة اذا تخطت حدودها ، وأنه فى أعماق العذاب يتوثب لطرح همه باستهتار يستوى أن تعده قوة أو يأسا فاستسلمت للمقادير وقلت ليأت الشيطان أن كان مقدرا له أن يأتى ، وليأت الموت ....

(الكرنك)

..ويمضى بنا الزمن ، نطوى كل يوم خطوة فى الحلقة السابعة . من عجب أن صحتنا تنافس همومنا فى قوتها . وعصر الزعيم الثانى عامر أيضا بالمفاجآت ،فهو عصر المنابر والنصر والسلام والانفتاح وعصر أكبر درجات سجلها الفساد فى تماديه واستفحاله ، ولا نكاد نفطن الى ما طرأ علينا من تغير الا أن نطلع لمناسبة على صورة قديمة فنقارن ذاهلين بين ماكنا وما نكون ، ونزداد التصاقا ومودة ، ويمسى قشتمر عضوا فينا كما نمسى ركنا فيه ، ونتبادل النظرات ونتذكر الراحلين ونعرف أن يومنا سيجئ .

(قشتمر)

obeikandl.com